رواية

الديك

سالم الجابري





سالم الجابري

الديك

المؤلف: سالم الجابري

(كاتب من سلطنة عمان)

الطبعة الأولى: 2013 (مسقط)

الناشر:



بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان - مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 98889342 - 99260386
ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320
www.altakween.com

تصميم الغلاف :

أحلام بنت محمد الرحبي

رقم الإيداع 197 / 2013

إهـــداء

لأنه عمل متواضع جداً،

أذكر في أوله أهل الكرم والجمال..

أهل صعراء

الفصل الأول

ديك حي يعيش في بطني....نعم هكذا بدأ الأمر في ليلة أول يوم من أيام امتحانات الثانوية العامة. في تلك الليلة عندما أويت إلى فراشي كانت الساعة قد تخطت الثانية عشرة، وكان جميع من في البيت نياماً. أخذت مضجعي وتلحفت، وفجأة صاح الديك.

في البداية اعتقدت أن النافذة مفتوحة فنهضت لإغلاقها لكني وجدتها مغلقة. عدت لمرقدي. عاد الديك ليصيح بصوت أقوى هذه المرة، قلت في نفسي لا بد أن أحد اخوتي الصغار قد ألقى لعبة صغيرة تصدر هذا الصوت. أضأت المصباح وفتشت الغرفة ولم أجد شيئاً. عدت محاولاً النوم وعاد الديك للصياح كأنه يؤذن لصلاة الفجر. استمر في الصياح وكان بين كل صيحة وأخرى أقل من دقيقة. تضايقت بشدة، عزمت على أن أقوم بسرعة وأشعل المصباح بمجرد أن يبدأ بالصياح لأكتشف مكانه. كنت متحفزاً منتظراً. بدأ صيحته وقفزت أنا لأضيئ المصباح. لكن بمجرد أن تحركت كأن شيئاً كتم صوته فتقطع في البداية ثم انكتم. بقيت على هذه الحالة حتى الثالثة صباحاً. بعدها نمت من التعب وتوقعت أن الأمر قد انتهى بانقضاء تلك الليلة إلا أن الأمر لم يكن كذلك.

مر يومي بشكل طبيعي، قدمت الامتحان بشكل مرضي رغم الإجهاد من قلة النوم. عدت للبيت وعند دخولي كان أخي الكبير الذي ينام معي في نفس الغرفة قد صحا لتوه وجلس لتناول القهوة، جلست معه، سألني عن الامتحان فحمدت الله أنه كان سهلاً. قال لي:

-البارحة عندما جئت من العمل كانت الساعة الرابعة فجراً، لكني لم أستطع النوم حتى الخامسة. أزعجني هاتفك، لم يتوقف عن الرنين.

ثم قال مستغرباً:

- رنة صياح الديك!!!!..... غيّر هذه الرنة إنها مخجلة. تصور أن يرنّ هاتفك وسط جمع من الناس.

-إنه ليس هاتفي يا أخي. أنا أيضاً أزعجني صياح الديك ولم أتمكن من النوم حتى الثالثة صباحاً. أعتقد أنه يصدر من لعبة رماها أحد الصغار في مكان ما من الغرفة.

- بل من هاتفك. كان الصوت يصدر من تحتك وأنت نائم ولو لا خوفي من إزعاجك وأنا أعرف أن لديك امتحانا اليوم لكنت قلبتك وأخرجت الهاتف من تحتك.

كلامه أثارني وأعاد لي الشعور بالضيق الذي كنت أحسه البارحة. أخرجت هاتفي وطلبت منه أن يتصل عليه. كانت الرنة عادية وليست صياح ديك.

-إذن من أين كان يأتي الصوت!! .... قال أخي مستغرباً:

أبي يرجع البيت في حوالي الثالثة ظهراً وحتى ذلك الحين قررت أخذ حمام خفيف والا سستلقاء بعدها على السرير حتى موعد الغداء. دخلت الحمام وتجردت من ثيابي ومددت يدي لأفتح ماء الرشاش. مع أول دفقة ماء صاح الديك. كأن الصيحة في أذني. ثم سمعته يضرب بجناحيه على جنبه. كدت أجن، إذ لا مكان يمكن أن يختبئ فيه أي شيء، أنا هنا فقط، لا ملابس ولا أي شيء وصوت الديك يأتي من الداخل.

في سكون الحمام حاولت الإنصات جيداً لصياح الديك. أخيراً حددت المصدر. إنه يصيح في بطني ولاشك، حتى لكأني أحس به حين يحرك جناحيه استعداداً لإطلاق صيحته، ثم أشعر بدغدغة عند الخاصرة كأنه ينقر بحثاً عن شيء يأكله. خاطبت نفسي......كيف يمكن أن أصدق هذه الأوهام. لا شك أني جننت جنوناً طاغياً، هل يعقل أن يكون في بطني ديك. ويصيح على راحته...ويحرك جناحيه ..وينقر بحثاً عن الحب؟! لا هذا مستحيل. لكن انتظر ليس أنت الوحيد الذي تسمعه، أخوك أيضاً سمعه

وقال ان الصياح كان يأتي من تحتك.أمسكت بطني وعصرتها لعلي أخنقه وأقضي عليه. أطلقت بطني لأرى إن كان سيعاود الصياح. لم يصح لكن الدغدغة تواصلت في الداخل وأنا أحس به كأنه ينبر الأرض برجليه وينقر على جدار بطني. كنت إذا أحسست بالدغدغة من اليمين ضربت بطني ضربة قوية لعلها تطيح به لكنه لا يلبث أن يتحرك ناحية اليسار ليعاود النقر.

"هذا لا يجدي"...... قلت لنفسي.

ارتديت ثيابي وخرجت وقد خطرت ببالي فكرة بدت لي جيدة. خطر لي أن أجعله يغرق. ذهبت للثلاجة وأتيت بزجاجتين كبيرتين من الماء وأقفلت علي الغرفة وبدأت أشرب.... وأشرب..... وأشرب حتى أحسست بطني ستنفجر. لكني لم أتوقف عن الشرب. كنت أنتظر أن أحس به وهو يغرق، عند فراغي من الزجاجة الثانية أحسست بشيء. أحسست به وكأنه يتمشى على حافة بركة ويبرد رجليه بالماء. الأمر أصعب مما تتصورون. أن يعيش ديك في بطن أحدكم هذا أمر يجعل كل شيء مختلفا. كانت تراودني أفكار مرعبة وأصبت بإحباط شديد. بطني ممتلئ بالماء وذلك الديك يخربش. تبخرت كل احلامي في مخيلتي بسبب هذا الديك. كيف سأدرس وأتوظف وأتزوج عائشة وهذا الديك يصيح في بطني. تخيلت نفسي وقد تزوجت عائشة ودخلت بها فإذا بهذا اللعين يصيح في بطني...... ماذا سأقول لها؟!؟!؟!؟. من شدة إحباطي تناولت هاتفي واتصلت بها...... كانت مغتبطة بسهولة الامتحان.

-أهلاً ....أهلاً....كنت أنتظر إتصالك.

-حبيبتي عائشة، أرجو أن تنسي أمري. تستطيعين مواصلة حياتك بدوني. أنا حياتي انتهت. هذا الاتصال هو اتصال وداعي.

-ماذا.....هل جننت؟.....ماذا بك؟

-أنا مضطر لإقفال الخط. لا أستطيع الكلام أكثر يا عائشة. تأكدي أني أحبك كثيراً. وداعاً يا حبيبتي.

استعدت بعض هدوئي وحاولت التفكير، ماذا يمكن أن أفعل؟؟؟؟ لابد من التصرف وبسرعة، لكن كيف؟...... عملية جراحية .... نعم، يمكن إخراجه بعملية جراحية، لكن لم أستطع تخيل نفسي وانا أجلس أمام الطبيب وأخبره أن في بطني ديكا. كيف سيأخذ الأمر ياترى؟ قررت إخبار أخي. اتصلت به وطلبت منه الحضور للغرفة....

- ماذا بك؟ أبوك جاء من العمل هيا إلى الغداء.

- أخي أرجوك، أرجو أن تتفهمني. ذلك الديك الذي سمعته البارحة، لقد تأكدت الآن أنه في بطني..... تصور ذلك!.

- ماذا ... هاهاها.... ذكرتني بكذباتك الغبية وأنت صغير..... هاها.

قاطعت ضحكات اخي صيحة طويلة صدرت من بطني، ولأ لأكد له قمت وحسرت الثياب عن بطني وألصقتها بأذنه. قام من جلسته فزعاً ونظر لي نظرة خوف.....أما أنا فشعرت برغبة في البكاء....كان بكائي مختلطاً بصياح الديك وأخي واجم لا يعرف ما يقول. أسئلة كثيرة تلفظ بها أخي.... كيف يتنفس؟...... كيف يأكل؟..... كيف يتحرك؟..... قمت وانا ثائر أصرخ به:

-لايهمني كل هذا.... المهم أن يخرج من بطني.

- إهدأ قليلاً. ما رأيك لو وضعت له بعض الحب على الأرض ثم تفتح فمك. قد يخرج ليلتقط الحب ثم تغلق فمك بسرعة فلا يستطيع العودة. وإذا لم تنجح هذه الفكرة عندي فكرة أخرى ستنجح بالتأكيد. جيراننا لديهم قفص دجاج خلف المنزل، إذهب وافتح فمك وسيخرج بمجرد سماعه لأصوات الدجاج.

خرج اخي وعاد وهو يحمل في إحدى يديه حفنة من حبوب القمح وفي الأخرى حفنة أرز.... وضع حبوب القمح على الأرض.... دنوت منها وفتحت فمي على آخره لكن اللعين أبى أن يخرج. قال أخي:

-دعنا نجرب حبوب الأرز ربما لا يحب القمح.

فتحت فمي مرة أخرى على حب الأرز وأيضاً بدون فائدة. بقي الحل

الثاني، خرجنا نقصد قفص الدجاج خلف بيت الجيران. كانت الدجاجات تستريح في الظل دون أن تصدر صوتاً، أشار علي أخي أن أبقي فمي مفتوحاً وهو سيحاول إيقاظها لتتحرك وتحدث صوتاً ليسمعها الديك. فتحت فمي على آخره نحو الشبك الحديدي وأخي يرمي الدجاجات بالحصى لتتحرك. على قدر ما حاول أخي دفع الدجاجات لتتحرك وتصدر أصواتاً إلا أنها رفضت أن تغادر الظل وتقترب من الشبك حيث كنت أقف.قرر أخي الدخول والإمساك بإحدى الدجاجات، كنا خائفين أن يرانا أحد لكن لم يكن باليد حيلة. دخل القفص وبعد مطاردة عنيفة في القفص استطاع أن يمسك بواحدة...قربها من فمي وهو يعصر بطنها لتصدر صوتاً يغري الديك بالخروج.... بالفعل أحسست بحركة في الجزء الأعلى من بطني وكأنه يريد الصعود..... طلبت منه أن يزيد من عصر الدجاجة لتصدر صوتاً أقوى فقد قاربت خطتنا على النجاح..... اجتهدت في فتح فمي قدر ما أستطيع وقرب أخي رأس الدجاجة من فمي ليسمعها الديك.....كنت أشعر به يصعد....لكن... لم ندر إلا وجارتنا العجوز تخطف الدجاجة من بين يدي أخي، قالت وهي غاضبة:

-الله أكبر عليك. تريد أن تبتلع دجاجة حية دفعة واحدة. أبوكما ليس لصاً وأمكما فاضلة من أين أتيتما بخلق اللصوصية، ويوم قررتما أن تسرقا تأتيان لتسرقا دجاجاتي!!!!.

لم نستطع أنا وأخي أن ننبس ببنت شفة أمامها. كانت تهاجم بشراسة العجائز، وفي لحظة سكتت فهي تنتظر منا أي كلمة صاح الديك في بطني صيحة قوية. فطنت العجوز أن الصيحة من بطني، التفتت تعد دجاجاتها ثم أمسكت بثوبي تطالبني بإخراج ديكها من جوفي وإلا أخبرت الشرطة. موقف كان يتطلب مني ومن أخي اتخاذ قرار حاسم. تبادلنا النظرات وقررنا الهرب، نزعت ثوبي بسرعة من يدها وأطلقت ساقي للريح وأخي خلفي واللعين مازال يصيح.آخر شيء سمعناه ونحن نولي عن العجوز تهديدها ووعيدها بإبلاغ

الشرطة، وأنا أركض رن هاتفي، كانت عائشة. ندمت على ما قلته لها، أجبتها وأنا أركض وألهث:

- عائشة، لا استطيع أن اشرح لك الآن، أنا آسف بشأن ما قلته لك قبل ساعة. أنا وأخي الآن هاربان من جارتنا العجوز.

أقفلت الخط قبل حتى أن استمع لردها. التفتّ أبحث عن أخي فوجدته خلفي بمسافة بعيدة. إنه بطيء بسبب وزنه الزائد كثيراً. لحق بي ووجهه محمراً ويلهث بشدة، سألني:

- ماذا الآن....ماذا سنفعل؟

- لا تطلب مني أن أذهب إلى المستشفى.....سأصير أضحوكة البلد.

- عندي فكرة، أعرف طبيباً بيطرياً ما رأيك؟

- بيطري!!!! ماذا تراني؟! .... هل تراني تيساً أو ثوراً أو ماذا؟

-لا تغضب، البيطري سيعرف كيف يتعامل مع الديك، وربما عالج حالات مشابهة من قبل....عندما أخذت العنزة عنده قبل شهر سمعته يقول إنه يعرف معاني أصوات الحيوانات، ربما تمكن من التفاهم مع هذا الديك وإقناعه بالخروج. ركبنا سيارة أخي متجهين إلى عيادة البيطري، فاجأني أخي بسؤال ونظرة غريبة، قال وهو يناوب التفاته بيني وبين الطريق أمامه:

- ماذا تفعل؟

لم أفهم ماذا يعني بسؤاله. سألته عما يعنيه، قال: إني أقلد حركة الديك برأسي كلما صاح في بطني. أدركت أن الأمر يتطور بسرعة. طلبت منه الإسراع إلى العيادة قبل أن أتحول إلى ديك يجلس بجانبه. وصلنا الساعة الرابعة وهو وقت فتح العيادة البيطرية. كنا أول الزبائن، فضل أخي أن يدخل ويشرح الأمر للدكتور ثم أدخل أنا. انتظرت في السيارة، راودتني فكرة الوقوف فوق السيارة والصياح عدة مرات، لا أدري إن كان يجد ربي قول هذا، لقد تذكرت تلك الدجاجة التي أمسكها أخي وقربها من فمي. هيئ لي حينها أن عينيها

جميلتان ورائحتها مثيرة. فاجأني أخي بخروجه من العيادة قائلاً:
- هيا إلى الطبيب. بدا شديد الإهتمام عندما أخبرته عن حالتك .
دخلنا عند الطبيب، رحب بي مبتسماً ثم أجلسني على كرسي. قال وهو يبحث عن شيء في صندوق ورقي في زاوية الغرفة:
-أنت محظوظ جداً يا إبني، أنا أتابع آخر مستجدات العلم وكل الأبحاث التي تنشر في المجلات العلمية، حالتك على سبيل المثال نادرة جداً وقد نشر عنها العالم الياباني المشهور تمارو بحثاً مطولاً في مجلة نيتشر العلمية وسيكون سعيداً جداً لو اكتشف حالة أخرى.
التفت لي أخيراً وقد أخرج من ذلك الصندوق مجلة أجنبية مهترئة عليها الكثير من فضلات الدجاج وأخذ يقلبها وهو يقول:
-دعني أخبرك يا إبني أن ما تحس به حسب ما شرح العالم الياباني هو تحول جيني تسببه الهرمونات المستخدمة في تغذية الدجاج. ليس هناك ديك في بطنك إطلاقاً، هذه بوادر الحالة بالضبط كما هو منشور هنا ويفترض تمارو الياباني أن الأمر ينتهي بأن يتحول المصاب بهذا التحول الجيني إلى ديك ولو كنت إمرأة لتحولت إلى دجاجة.
وهو يقلب المجلة تساقطت الكثير من فضلات الدجاج على ثيابه، كان ينفضها بيده لتستقر على ثيابي. استطعت قراءة تاريخ المجلة ، كان تاريخها يرجع إلى عشر سنوات مضت. تنهّد بعمق ثم قال لي بشكل حازم:
-إسمع، سأكتب رسالة لهذا العالم أعلمه بحالتك، وإلى أن نتلقى رده سأعطيك دواء يخفف الحالة هو عبارة عن حبوب تستخدم عادة لتهدئة الدواجن والديكة خاصة.
وضع المجلة وأخرج كيساً به حبوب صغيرة مدورة وزن لي منها مقدار كيلو جرامين. خرجنا من العيادة ولم أستطع الكلام لفرط الصدمة. ركبت السيارة وبدأت الدمعات تتقاطر. رن هاتفي، كانت عائشة هي المتصلة، احترت ماذا

أقول لها؟؟؟ أعطيت الهاتف لأخي وطلبت منه أن يصارحها بكل شيء. لم أدرك كم هو أخي صريح حتى ذلك اليوم، صراحته كانت مميزة إلى أبعد الحدود، أخبر عائشة بأني في طريقي إلى التحول إلى ديك لكنه لا يعلم أي نوع من الديكة بعد، سمح لنفسه بادعاء المعرفة وردد الكلمات التي سمعها من البيطري. ما أثار حفيظتي وشككني هو قوله لها انه لا سبيل للزواج بي إلا إذا تحولت هي إلى دجاجة. ثم قال لها بالحرف الواحد: "لحسن الحظ أنا لن أتحول إلى ديك ويمكننا أن نعتني به سوياً في المستقبل". خطفت الهاتف من يده، كانت عائشة تبكي بحرقة، انتظرتها حتى سكتت ، سألتني إن كنت فعلاً سأتحول إلى ديك، أخبرتها بما قال لنا البيطري ، قالت:

- ولكن ماذا إذا لم يكن لدى الياباني دواء، أو ربما قد مات منذ سنوات، أنت تقول ان المجلة كان تاريخها قبل عشر سنين!؟!؟....ثم انخرطت في موجة بكاء أخرى ، قالت بعدها:

- لست أمانع أن أتحول إلى دجاجة ولكن كيف.؟

- لا يا حبيبتي، ما زال الوقت مبكراً للتفكير في تحولك إلى دجاجة، هذا خيار أخير، اسمعي يا عائشة ، لا تستمعين لأخي البدين هذا، إنه فضولي وانتهازي كبير وشره أيضاً....ولا يمكن النوم بجانبه بسبب الشخير.

شعرت أنه يريد استغلال الموقف والفوز بعائشة على حسابي. كنت غاضباً منه ولم ألتفت إليه حتى وصلنا البيت. حاول أن يبرر موقفه بالقول اني إذا تحولت إلى ديك فلن يضرني إذا تزوج هو عائشة وأنه مستعد أن يأتي لي بأجمل الدجاجات. من شدة غيظي كنت ألقي في فمي من تلك الحبوب التي أعطاني إياها البيطري اللقمة وراء اللقمة، فعلاً أحسست بعدها بالهدوء. استطعت المذاكرة تلك الليلة ونمت قبل منتصف الليل. نهضت عند أذان الفجر وأنا أحس بنشاط. أردت استنشاق بعض نسمات الفجر فصعدت على سطح البيت. أنعشني الهواء كثيراً فأحسست أني أريد الصعود إلى

مكان أعلى بحثاً عن نسمات أقوى، صعدت على جدار السطح وأنا أشعر بنشوة عجيبة. استطعت تحسس اتجاه الريح بشعري. مددت رقبتي قدر استطاعتي وأطلقت صيحة قوية. لم أنتبه لفعلتي إلا بعد إطلاق تلك الصيحة. نزلت الدرج مسرعاً لأختبئ في الغرفة، تفاجأت بأبي عند أسفل الدرج. في البداية كأنه عجّم علي فلم أستطع الكلام ثم تمالكت نفسي وألقيت عليه السلام. كان خارجاً لصلاة الفجر، تمتم مستغرباً وهو يخرج:

-لمن يا ترى هذا الديك الذي بات فوق بيتنا.

عدت للغرفة وأخرجت كيس الحبوب وبدأت بالأكل. كان علي أن أمتحن وكنت أخاف أن أصيح في قاعة الامتحان. ذلك البدين كان لايزال نائماً. نظرت إلى كرشه المتهدلة وفانلته المثقبة واستغربت كيف يتجرأ ويرشح نفسه لعائشة الجميلة. ماذا ستقول لو رأته هكذا. فمه المفتوح مغارة للذباب.

اعتمدت على طعام الديكة المهدئ خلال فترة الامتحانات. ما أقلقني هو عائشة، لم أعلم ما الذي جعل فكرة أنها لابد أن تتحول إلى دجاجة هي الأخرى أمر محتوم بالنسبة لها إن أردنا أن نبقى معاً، وكأنها يئست من شفائي. اتصلت بي في إحدى الليالي في وقت متأخر، كانت قلقة ولم تستطع النوم ، سألتها عن ما يقلقها، قالت وهي تحرك حلاوة البولو المنعنعة بلسانها كعادتها:

- أرجو أن لا تستخف بي، صحيح أني حتى الآن لم أفقد الأمل لكن هناك شيئاً يحيرني، إذا تحولت أنت إلى ديك، ولم نجد وسيلة إلا أن أتحول أنا إلى دجاجة، أين سنسكن ؟ ومن سيعتني بنا؟ ..... هل تصدق أني من الآن أفكر في البيض؟

- إنك تستعجلين الأمور كثيراً يا عائشة. نستطيع أن نفكر في كل هذه الأشياء فيما بعد. ولكن إياك أن تجعلي لذلك البدين مساحة في أي تفكير مستقبلي.

– أنا لا أفكر فيه يا سالم، لكني أجد ما قاله منطقياً. ماذا لو تحولت أنت إلى ديك ولم أستطع أنا التحول إلى دجاجة. من سيعتني بك؟!؟!.....ثم من

يضمن لي أنك لن تتزوج دجاجة أخرى من دجاج الحارة؟. أفضل أن تبقى أمام عيني.

- لا أمانع أن أبقى أمام عينيك. ولكن ما دخل للبدين بهذا؟ احمليني معك إلى بيت أبيك ولن أخرج. سأبقى تحت نافذتك ويمكنك أن تربطي كيساً عند ذيلي لكي لا ألوث النافذة.

حان الوقت لشراء كمية أخرى من طعام الديكة المهدئ. قصدت العيادة البيطرية وأنا أمني نفسي أن أجد أيضاً أخباراً عن دواء شاف. الأخبار كانت سيئة. لقد جاءت رسالة من مساعد العالم الياباني يخبر فيها أنّ أستاذه مصاب بداء الخرف، وإذا مازالت عنه نوبة الخرف سيعرض عليه حالتي. إذن أملي متعلق الآن بيد عالم مسن وخرف. خرجت من عنده أحمل كيس الحبوب وأنا محبط. بلغ بي الإحباط أني قصدت قفص دجاج جارتنا العجوز. وقفت أتأمل ما قد يكون عليه شكل بيتي المستقبلي. كان هناك ديك في القفص. وضعت عيني بعينه وأنا أنظر إليه نظرة منافس. اقتربت مني بعض الدجاجات فأعطيتها بعض الحبوب، حاول الديك الاقتراب فرميته بحجر. استغرقت في تأمل الدجاجات. إحداهن كانت شابة وجميلة، اقتربت كثيراً من الشبك الحديدي حيث ألقيت الحبوب، مددت يدي لألمسها فإذا بذلك الديك يعدو نحوي فارشاً جناحيه في وضع عدائي. كان يريد الصراع وكدت أدخل معه في مواجهة لولا إحساسي بيد تقبض على رقبتي من الخلف، لقد كانت العجوز مرة أخرى:

- يا لص ، متى ستتوب عن سرقة الدجاج؟؟....لن أتركك اليوم حتى أوصلك لبيت أبيك وأشكوك له.

كانت قبضتها على رقبتي قوية لدرجة أني أحسست أن أظافرها ستخترق جلدي، لكني أيضاً هذه المرة استطعت الإفلات منها بخدوش صغيرة، وأنا أهرب القيت نظرة تحد على ذلك الديك الذي في القفص متوعداً إياه بتصفية

الحساب في وقت آخر.

لم يكن بيدي سوى الانتظار والتهام المزيد والمزيد من حبوب الديكة المهدئة، في الحقيقة لقد اعتمدت بصورة شبه كلية على تلك الحبوب في طعامي، كنت لا أخرج من غرفتي إلا نادراً خوفاً من انطلاق صيحة مفاجئة أمام أحد فينكشف أمري. بدأت أمي تشكك أني أعاني نوعاً من الاكتئاب بسبب انتظار نتيجة الامتحانات. مرت أيام وبعدها أيام، وكل يوم يمر كان تأثير الحبوب يتناقص بالرغم من أني ألتهمها بشكل شبه دائم. كانت تمر علي لحظات يأس أتمنى فيها أن أتحول مباشرة إلى ديك لأتخلص من هذا الانتظار وليكن ما يكن بعدها. كنت أقول لنفسي: "سأعيش مثلما تعيش ملايين الديكة في هذه الدنيا. ثم ما الضير في أن يكون المرء ديكاً؟!، إن في ذلك الكثير من الميزات، أولاً سأحصل على عرف، ثانياً سأحصل على ريش ملون وذيل للزينة، ورعية من الدجاج والصيصان ومنطقة سيطرة خاصة". ما كان يحز في نفسي كثيراً هو فراق عائشة. وأخاف عليها من أخي البدين، سيقنعها لا محالة بأن أمري انتهى وأن من الأفضل لها أن تتزوجه. بدا لي حينها أن لحالتي النفسية تأثيراً على سرعة التفاعلات التي كانت تجري في جسدي. تلك الليلة كنت في شوق شديد لعائشة، اتصلت بها عدة مرات لكن هاتفها كان مشغولاً باستمرار. ليس من عادتها إطالة المكالمات إلا معي.تضايقت بشدة حتى أني صعدت فوق سطح البيت وصحت عدة مرات موجهاً صوتي في اتجاه بيتها. بعد كل صيحة كنت أعود للغرفة لمحاولة الاتصال بها مرة أخرى بدون جدوى. لم أجد تفسيراً لانشغال هاتفها. تذكرت أخي البدين، كانت تلك الليلة هي نوبته في الحراسة الليلية ولم يتصل ليطمئن علي كعادته. اتصلت به فإذا هاتفه هو الآخر مشغول!!!. اقتنعت أن البدين استطاع أن يلقي شباكه على عائشة مستغلاً حالتي، وربما أقنعها أنه سيتزوجها لتعتني بي، وقد يحلف لها أنه سيطلقها لو شفيت أنا، وهي ساذجة ستصدقه. لم أطق

نفسي من الغيظ، كنت أغلي كالمرجل. صعدت إلى أعلى السطح لأنفس عن نفسي قليلاً ، أطلقت عدة صيحات قوية في الفضاء، سمعت أبي في الأسفل يتذمر من صياح الديك لكن ذلك لم يهمني. كنت أريد أن أصيح بشدة. صعدت على جدار السطح مستعداً لاطلاق أقوى صيحة عندي لعل عائشة تسمعها وتتذكرني. وقفت ... مددت رقبتي... ملأت رئتي بالهواء لآخر سعة. أطلقتها مدوية ملأت كل فضاء الحارة. أخذت نفساً آخر لأطلق صيحة أخرى. سمعت أبي يصعد الدرج مسرعاً وهو يشكو الإزعاج. اختل توازني عن الجدار. هويت في اتجاه الأرض. أيقنت أني إن سلمت من الموت فلن أنجو من الكسور المتعددة. لكني وصلت إلى الأرض بكل راحة. ماذا حصل... لم أفهم ماذا حصل بالضبط ، لكنه حصل، وصلت إلى الأرض وأنا أملك عرفاً وذيلاً وكل مقومات الديك. نظرت إلى أعلى البيت فرأيت أبي يلوح لي بالعصا ويقول "كشششderالشش.... كششششششش»..... عرفت حينها أني قد تحولت لديك.

الفصل الثاني

«أهلاً بك في عالم الديكة»

قلت ذلك لنفسي وأنا أتفحص شكلي الجديد، هززت رأسي لأتحسس العرف. نظرت لذيلي فإذا به منتصباً وتزينه ريشتان طويلتان صفراوان نهايتهما حمراء.فردت جناحي لأرى طولهما. أدركت أني يجب أن أفكر الآن كديك وأن أتصرف كديك وإلا فلن أعيش حتى يوماً واحداً.

مشيت بمحاذاة جدار البيت. عند الزاوية فوجئت بمجموعة من الأولاد الأشقياء لم يتورعوا عن ملاحقتي وقذفي بالحجارة ، لم ينقذني منهم غير خروج المصلين من المسجد الذين نهروهم بشدة. لم أستطع التفكير في مكان أذهب إليه غير قفص العجوز. كانت الدجاجات نائمات، درت حول القفص حتى وجدت فتحة صغيرة فحشرت نفسي ودخلت. حاولت أن لا أحدث أي صوت. وجدت زاوية بين الصناديق الخشبية المتراصة اختبأت فيها.كنت متعباً من كثرة الركض أمام أولئك الأولاد الأشقياء، ولم أكد أغمض عيني حتى نمت نوماً عميقاً. صحوت قبل الفجر وأنا اشعر برغبة كبيرة في الصياح، وقفت على قدمي ومددت جناحي ورفرفت بهما قليلاً لأستعيد نشاطي. سمعت حركة قريبة عرفت أنها من ذلك الديك اللعين. كان علي أن أسبقه إلى مكان مرتفع في القفص وأطلق صيحتي قبله إعلاناً لسيادتي. تفحصت المكان بسرعة فوجدت أن أعلى مكان هو فوق الصناديق الخشبية. خرجت من بين الصناديق بأسرع ما استطعت. قفزة وبضع خفقات من الجناحين وكنت أتربع على عرش القفص. وأنا على وشك إطلاق الصيحة إذا بذلك الديك يحاول الصعود هو الآخر، لم

يكد يطأ المكان بجانبي حتى قفزت ودفعته بقدمي ليسقط في الأسفل. لم أضع الوقت وأطلقت الصيحة معلناً عهداً جديداً وسيداً جديداً لهذا القفص.

واصلت الصياح بكل قوة حتى أنوار الفجر الأولى. كان علي أن أقنع الدجاجات في الأسفل بجدارتي، الديك الآخر تقبل الأمر وانزوى في إحدى زوايا القفص دون أن يجرؤ حتى على النظر لأعلى. نزلت أريد تفقد الدجاجات. قد تستغربون أنّ الدجاجات تتزين ، كن يأخذن الدهن من الغدة التي في الذيل بمناقيرهن ثم يسوين به ريشهن ريشة ريشة، ثم بدأن بنبر الأرض وإظهار الحب وكل واحدة تدعوني للأكل بجانبها وأنا أتبختر بينهن كالملك. أخيراً اخترت دجاجة شابة لآكل معها.

بدأت أشعة الشمس تضيء الظلال بين الصناديق الخشبية التي تشكل بيوت الدجاج. خرجت أنا والدجاجات إلى ساحة القفص. كنت في وسطهن، هن ينبشن الأرض وأنا ألتقط الحب. تفاجأت أنهن تركنني وركضن إلى جهة من القفص. كانت العجوز قد وصلت تحمل بقايا طعام، ألقته من خلال فتحات السياج الحديدي وبدأت تتفقد دجاجاتها، لمحتني وبقيت محدقة بي. عرفت أني ديك غريب لكنها لم تكن لتمانع ببقائي .استقرت أموري في القفص، وكان لابد من أن أبدأ بمتابعة أموري خارج القفص.

بعد تناول الإفطار قررت الخروج لاستطلاع ما يحدث مع عائشة والبدين. كنت أتمنى أن لا تكون شكوكي في محلها، لكن أكثر ما كان يخيفني هو سذاجة عائشة التي ستكون فريسة سهلة أمام ذلك المخادع. كنت قلقاً أيضاً بشأن أمي، لابد أنها لاحظت غيابي الآن. من على سيارة البدين قفزت فوق الجدار، ومن على الجدار قفزت إلى السطح. بكل هدوء كنت أراقب البيت من الثقوب التي في جدار السطح. كان أبي وأمي في الغرفة يتكلمان. استطعت رؤيتهما من خلال النافذ لكني لم أتبين ما يقولان. من المفترض أن البدين نائم في تلك اللحظة إن كان قد أنجز نوبته المسائية في الفجر. خرج أبي من

غرفته وذهب إلى غرفة أخي. خرجت أمي إلى ساحة البيت وهي تبدو قلقة، ثم خرج أبي ومعه أخي ووقفا يحدثان يحدّثانها. أمي كانت تعتقد أني تركت البيت بسبب اكتئابي وخوفي من نتيجة الامتحانات. البدين حاول طمأنة أمي بأني بخير وسأعود. تخيلت أني لمحت ابتسامته وهو يتركها ذاهباً إلى غرفته. لابد أنه عرف أني قد تحولت إلى ديك وهذا سبّب غيابي. كان يفترض به في تلك اللحظة الخروج والبحث عني، إلا أنه وبكل سعادة عاد إلى غرفته. نزلت من فوق السطح وصعدت على حافة نافذة غرفته المطلة. رأيته يتكلم في الهاتف. شككت أنه يكلم عائشة. نزلت وقررت الذهاب لبيت عائشة. عبور الشوارع الضيقة في الحارة مخاطرة كبيرة بالنسبة لديك، لكني وصلت أخيراً لبيتها، تسللت من الباب الخارجي المفتوح واختفيت بين شجيرات الياسمين. لم أتوقع أنها ستخرج لقطف زهور الياسمين في تلك اللحظة، خرجت عائشة متجهة مباشرة للشجيرات، مدت يدها وأخذت تقطف الزهور البيضاء بيد وتضعها في اليد الأخرى. كم أسعدتني رؤيتها . بدت رائعة الجمال في ثوبها الأخضر المزهّر بالأزرق. كانت أجمل من كل زهور الدنيا. جذبني حسنها كالكهرباء فرفعت رأسي نحوها وهي منحنية. أخرجتُ رأسي من بين أعواد الياسمين. لم أعرف ماذا دهاها فمدت يدها وأمسكت برأسي. كأنها استغربت شكله بين الوريقات الخضراء. شدت رأسي نحوها فكادت تخنقني، صرخت وتحركت حركة عنيفة. أصيبت هي بالرعب وألقت ما في يدها من الياسمين وأخذت تصرخ من الخوف. هرع أبوها نحوها فأخبرته أن شيئاً غريباً في شجرة الياسمين. أمسك بعصا واتجه نحوي. كان رأسي قد انحشر بين غصنين ولم أستطع تخليصه دون خدوش حول العينين. فقدت بضع ريشات من رقبتي، خرجت من الباب وأنا أطلق صيحات قصيرة متتالية لعل عائشة تفهم أني أنا .

عدت سريعاً لقفص الدجاج فهو المكان الآمن الوحيد بالنسبة لديك. وجدت ذلك الديك اللعين وقد توسط الدجاجات ونفش ذيله. فكرت أنه لابد

من حسم أمري معه، فعندي أمور أهم منه ولا أريد أن أجده كلما عدت من الخارج قد استولى على مكانتي بين الدجاجات، صراع واحد يكفيني.

تسللت إلى الداخل بهدوء، صعدت على الصناديق الخشبية فيما كان هو يحفر الثرى في الأسفل ليتبرد. بقفزة محسوبة ألقيت نفسي عليه وغرزت مخالبي في ظهره ونقبته في رقبته. أفلت مني وأخذ يدور في القفص متأثراً بالإصابة، طاردته وأرديته أرضاً عدة مرات ولم أتركه حتى تأكد أن إصابته باتت بليغة وأنه لا يقوى على رفع رأسه.

ما لم أكن منتبهاً له هو تجمع الناس حول القفص، كانوا يشاهدون المعركة الحامية وهم يقفزون من الحماس، شعرت بالفخر وبالبطولة. كانت أعين الرجال والأطفال تشع إعجاباً بي.......آهـ ...تمنّيت حينها لو أن عائشة بينهم لترى فعلي. بقفزة قوية صعدت على الصناديق الخشبية وأطلقت صيحة النصر تليها تصفيق حاد من الجمهور المتجمع. جاءت العجوز مسرعة بعد أن سمعت بما يحدث، هالها تجمع الناس حول القفص، اخترقت الجمع ووقفت تنظر لي وتفتخر بي. في الجانب الآخر وقعت عيني بين الجماهير على أخي البدين. اتجهت ناحيته حيث يقف لعله يعرفني لكنه تراجع مع اندفاع الناس للاقتراب مني حيث وقفت.

فاجأني جدال حاد بين مجموعة من الرجال يريدون شرائي من العجوز لمصارعة الديكة. انفض الجمع عن القفص وأظنني كنت حكاية الحي في تلك الليلة. بعد المغرب نامت الدجاجات وأما أنا فقد أثقل قلبي الهم. كنت أحكي لنفسي حكاية أخرى، كنت أتذكر أحلامي السابقة التي طالما تكلمنا فيها أنا وعائشة. البيت والسفر والأطفال و و و....حتى أننا كثيراً ما كنا نختلف على أسمائهم. كم بدا لي الأمر مضحكاً حينها. لم أكن لأمانع أن تسميهم ما تشاء حتى لو سمتهم بأسماء الديكة والدجاج. كل عالمي الذي بنيته لبنة لبنة في مخيلتي انتهى هكذا دون أن يكون لي فيه أي حظ. على هذه الهواجس

المجنونة غلبني النوم...وضعت رأسي تحت جناحي وأغمضت عيني منتظراً صباحاً جديداً لعله يكون أفضل من سابقه.

فجأة أحسست بيدين آدميتين تقبضان علي، رفعت رأسي. لثانية واحدة خطر لي أنه أخي جاء ليأخذني معه. لكن خاب ظني فلقد كان أحد أولئك الأشقياء الذين كانوا يساومون العجوز على شرائي. عرفت إنه يسرقني ليراهن علي في مصارعة الديكة. لقد كان لص دجاج محترفاً، أخفاني تحت ثوبه وضغط علي بحيث لم أستطع الحركة، رائحة جسمه النتنة كادت تخنقني. ركض مبتعداً عن القفص وعبر بي شارعاً عاماً، عرفت ذلك من أصوات السيارات. أدركت أنه يأخذني إلى منطقة المزارع. حين بدأ يمشي بهدوء بدأت أسمع كلاماً بلغة غير عربية وأصوات ديكة ودجاج بلهجة مختلفة. أدخل يده وأمسكني ثم رفعني عالياً. استنشقت أول نفس حقيقي خالياً من رائحته. فعلاً كان المكان مزرعة مهملة تنتشر فيها أقفاص الدجاج وبيوت العمال.

وهو مازال يرفعني عالياً قال شيئاً بصوت عال يخاطب العمال المجتمعين حول تلفاز قديم. قاموا مسرعين وتجمعوا حوله وبدأوا يتفحصونني. أزعجتني رائحة دخان السجائر الرديئة. أراد أحدهم تفحص مخالبي فتمكنت من خدش يده. أثار ذلك صيحات الفرح من باقي العمال. جاءوا بقفص ووضعوني فيه بالقرب من أحد أقفاص الدجاج الكبيرة، لم تكن الدجاجات النائمات في القفص كدجاجاتي. هذه الدجاجات بيض وأحجامهن كبيرة توازي ضعف حجمي. أدخل ذلك الخوف في نفسي، فإن كان هؤلاء الأشقياء لصوص الدجاج سيضعونني في مواجهة ديك من هذا الحجم فعلى الدنيا السلام.

في الصباح اتضح لي ما كان مخططاً أن يحصل، كانت هناك مساحة بين أشجار النخيل اليابسة، عدة رجال من العمال الآسيويين جاءوا بديكتهم في أقفاص ووضعوها حول تلك المساحة التي أريدَ لها أن تكون حلبة لصراع الديكة. بالإضافة لأصحاب الديكة كان هناك الكثيرون يطوفون حول

الأقفاص ليختاروا الديك الذي سيراهنون عليه. مفاجأتي الكبيرة كانت وجود أخي البدين. بمجرد رؤيتي له عرفت أين يذهب براتبه الذي لا يتبقى منه شيء. انتظرته بلهفة متوقعاً أن يتوقف عند قفصي ليتفحصني . طاف على كل الأقفاص وتفحص الديكة الضخمة التي فيها بعناية. جاء إلى قفصي، انحنى لينظر إلي ، نظرت في عينيه لعله يحس بي، اقتربت منه ، قلبت وجهي أمامه، رأيته ينظر لرجليّ، رفعت رجلي له واحدة تلو الأخرى لعله يفهم، فرشت ذيلي وصحت في وجهه، لكن لا فائدة، أحسست أنه يعرفني لكنّه يتجاهلني.

تفحصت الديكة التي في الأقفاص الأخرى فكانت فعلاً ديكة ضخمة، بعضها كانت تبدو عليه إصابات قديمة مما يعني أنه خبير بالقتال. فكرت ....إن هزمت قد أذبح ويأكلني هؤلاء وإن فزت فسيبقونني للمصارعات القادمة...... أين المخرج؟!؟!. خطرت لي فكرة .....ألقيت بنفسي في القفص وصحت صيحة قوية أنهيتها بصوت حشرجة ثمّ تمددت كديك ميت. فرّجت بين رجلي وألقيت برأسي وفتحت منقاري وأرخيت جناحيّ.

تجمع حولي كل الجمهور. كان الذي سرقني غاضباً جداً واتهم أخي البدين بأنه أصابني بالعين. استمرت النزاعة بينهم لمدة وأنا لا أتحرك. في النهاية استسلم ذلك الآسيوي وأخرجني من القفص وعلقني برجلي وقذف بي من بعيد في حاوية القمامة عند باب المزرعة. لم أتحرك لفترة قليلة تحسباً أن يكون ما زال في الجوار. قفزت بعدها لأقف على حافة الحاوية، لمحته وقد دخل بين جموع الأشقياء في المزرعة. نزلت ومشيت وأنا منكسر القلب، أخي الذي ظننت أنه سيكون حزيناً لفقدي ويجتهد في البحث عني يتسلى بالمراهنة في مصارعة الديكة. كنت أمشي مطأطأ الرأس على غير هدىً. لم أنتبه للسيارة التي مرت وكادت تعجنني بالتراب. ولو حدث ذلك من سيهتم بي؟!؟. من سيتأسف على مقتل ديك ضال؟!؟!. حتى عائشة لا أظنها تريدني الآن، ماذا يمكن أن تريد من ديك؟. لكني ما زلت أحبها ولا تتنفس روحي إلا طيب أنفاسها. تزين ذكراها عمري كما تزين

الزهور الشجر ......آه يا أجمل ما في الدنيا. وكأن ذكراها الجميلة أمدتني بالقوة، قررت الذهاب والاختباء في السدرة التي أمام بابها. ربما تخرج فأكحل عيني بنظرة منها.

مشيت طويلاً وتخطيت شوارع شديدة الخطورة حتى وصلت لبيتها. صعدت على السدرة واتخذت مكاناً أطل منه على ساحة البيت. يالباب حجرتها. يا باباً تحفظ لي أغلى جوهرة، ما أحلى خربشات الأطفال عليك وما أحلى اسمها المكتوب عند المقبض. تفتحك وتغلقك بيدها كل يوم كم مرة يا ترى؟ آهـ ليتني أنت.

خرجت عائشة من حجرتها. هيئ لي أنها شمس الضحى......يا إلهي ....كم يجعلني شوقي لها أراها جميلة......حملت كرسياً كان عند بابها إلى ظل النخلة حيث فرشت أمها بساطاً وجلست. لحسن حظي جلست ووجها يشع باتجاهي. كنت واقفاً على الغصن ، خدرني جمالها، وهمت أراقب حركة شفتيها وهي تحدث أمها وكفها الغض المنقوش يداري الشعر عن عينيها.

تصاعد غبار كثيف من الأسفل. نظرت فإذا بالبدين يوقف سيارته تحت السدرة. أشعرني تصرفه وهو ينزل من السيارة بالخوف. كان يتأكد من هندامه ويقبض عضلات بطنه ليبدو رشيقاً. انحنى وأخذ جريدة من على المقعد وأغلق باب السيارة. طرق الباب فقامت عائشة بعد أن أصلحت حجابها لتفتح الباب. دخل البدين يمشي كالبطة وجلس مع أم عائشة. فتح الجريدة وأراها شيئاً ثم ناول الجريدة لعائشة. بدت عائشة شديدة الاهتمام. ألقت الجريدة على الأرض وقامت بسرعة ودخلت حجرتها. اعتقدت في البداية أنه ربما يريها نتائج اختبارات الثانوية لكني كنت مخطئاً. مشيت على الغصن حتى طرفه حيث تمكنت من رؤية الجريدة الملقاة على الأرض.

يا أخبث أخ عرفته....لقد جاء يريها الخبر المنشور عن اختفائي. يريد أن يقنعها بأني انتهيت ويرشح نفسه بالمقابل. لابد أن هذا الأمر من تدبيره، فلا

أمي ولا أبي قد يخطر ببالهما نشر الصورة والخبر في الجريدة بهذه السرعة. لم أعلم أنه ماكر لهذا الحد، ولم أعلم أيضاً أنه قاسي القلب لهذا الحد، أنا متيقن أنه يعرف أني قد تحولت لديك ولا يريد أن يخبر أحداً حتى يأخذ عائشة . من أعلى السدرة كان يمكن أن أرى بيتنا بعد بيتين. لا شك أن أمي في أشد حالات القلق. كيف يمكن لي أن أخفف عنها؟!.

اهتديت لحيلة قد تنفع وأيضاً ستنبئ عائشة بما يجري. أسرعت إلى سطح بيتنا وبقيت أراقب من فتحات الجدار. كانت أمي داخل المطبخ ، ظننت أنها فرصة سانحة لدخول غرفتها لكنها خرجت فجأة لتنظف الساحة. انتظرت حتى دخلت المطبخ مرة أخرى. تأكدت من انشغالها بعدما سمعت أصوات تصادم الأواني. أسرعت إلى غرفتها، بكيت عندما شممت رائحة غرفتها، ولو لا القاذورات التي التصقت بريشي من حاوية القمامة لكنت تمرّغت على ثيابها وفراشها.

دخلت تحت السرير حيث تعودت أن تخفي عني أشيائي عندما تغضب بسببها......الكرة...علبة حلويات الماكنتوش....لعبة الجيم بوي هي آخر ما أخذته عني أيام الامتحانات. حركت الكرة إلى الخارج، استطعت فتح علبة الماكنتوش بعد أن ثبتها بمخلبي وسحبت الغطاء بمنقاري. بحثت عن قطعة الحلوى التي على شكل قلب التي تحبها عائشة، حملتها بمنقاري وخرجت بسرعة إلى الخارج. أملت أن تلاحظ أمي الكرة وعلبة الحلوى المفتوحة فتعرف أني كنت هنا. من جدار إلى جدار حتى وصلت بيت عائشة. تعودت أن أضع لها الحلوى عند نافذتها المطلة على السكة. تصورتها منكبة على سريرها تبكي. قفزت ووضعت قطعة الحلوى على النافذة، ثم نقرت على زجاج النافذة. فتحت إحدى فردتي النافذة....يا الله كم بدت جميلة حتى وهي حزينة. رأت قطعة الحلوى ورأتني أنظر إليها. أخذت القطعة وتسمرت عيناها علي وقد بدا عليها الذهول الشديد. تألمت لمنظري كثيراً وبكت، أنا بكيت أيضاً. طأطأت

رأسي وصرت أحفر الأرض برجلي. خجلت كثيراً من شكلي أمامها. كنت أعتقد أني سأفرح، لكني أحسست بألم شديد لبكائها . لم تتوقف عن البكاء، أردتها أن تتوقف بأي شكل قفزت ووقفت على حافة النافذة قربها.

قالت وهي تبكي:

- يبدو أنك لم تنظف ريشك اليوم.....هناك بعض الأوساخ.

ما أطيبها!!!.... جاءت بفرشاة تنظيف الأحذية ونظفت ذيلي وجناحي ، لم أشعر بهذا الحنان منذ أن كنت طفلاً، تفحصت قدمي ودهنتهما بـ «الفازلين» وهي تقول:

- أود أن أدخلك معي إلى الغرفة لكننا لسنا متزوجين بعد... أنا آسفة، أرجوك سامحني.

طلبت مني الانتظار. ذهبت وأحضرت لي بعض الأرز والماء. أول مرة منذ ثلاثة أيام آكل وجبة نظيفة.

دخلت أمها فجأة فأغلقت النافذة. سمعتها تسألها مع من كان كلامها فقالت لها انها كانت تنهر بعض الأطفال الذين كانوا يطرقون النافذة. قالت أمها:

- هل سمعت ما قال ابن مريم عن أخيه..... لا أحد يعرف أين ذهب المسكين، يقول انه ربما جن بسبب الامتحانات.... كل شيء جائز.

درت حول البيت وصعدت على السدرة ومنها إلى سطح بيتها آملاً أن تأتي للسطح. وأنا أذرع السطح مجيئاً وذهاباً لمحت البدين يمشي على رجليه، كان يقصد دكان الحارة المقابل لنافذة عائشة. راقبته من ثقوب الجدار. اشترى مشروباً غازياً وجلس على عتبة الدكان مناظراً لنافذة عائشة. لم أحتمل النار المتأججة في صدري، قفزت لأعلى الجدار. أطلقت صيحة قوية في اتجاهه، لم تزد ردة فعله على الابتسام ثم أشار لي بأن أبتعد. تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أنه يعرفني وأنه يخطط لانتهاز الفرصة وأخذ عائشة. أحسست أن النار التي في صدري ستحرق ريشي. قفزت من أعلى البيت وحططت في مواجهته،

كان بيننا أقل من عشرة أمتار، نفشت ذيلي وفتحت جناحيّ استعداداً للهجوم عليه. عرف أن المسألة جدية فتبدلت ملامحه واحمر وجهه وانتفخ. هو يعرف كيف يمكن أن تكون آثار مخالب الديك وهو غاضب. انطلقت ركضاً في اتجاهه وعيني تقدح شرراً. أراد أن يقوم ليهرب لكن وزنه لم يساعده. قبل أن أصله بحوالي مترين ضربت بجناحي فارتفعت لأهاجمه في الرأس. استطاع أن يحمي وجهه بيده لكني استطعت خدشه في الرقبة. انسكب المشروب الغازي على ثيابه وتعثر وهو يريد الوقوف. استدرت مرة أخرى وهاجمته بذات الأسلوب من الخلف. حاول ضربي بيده فضرب عمامته وسقطت على الأرض. انحنى يحاول التقاطها فهاجمته مرة أخرى. حمي الوطيس بيني وبينه، قفزت فوق صناديق المشروبات التي أمام الدكان استعداداً لهجوم جديد من الأعلى. كان ينظر لي ويتراجع بعد أن أدرك أن معركته معي خاسرة. تعثر وانخلعت إحدى نعليه ثم سقط على قفاه. اعتبرت سقوطه هزيمة له فتوقفت عن الهجوم.كل هذا جرى وعائشة كانت تراقب الموقف من نافذتها. زادني هذا تيهاً وفخراً. نزلت من على الصناديق بكل هدوء وعدت لسطح بيتها. دقائق معدودة وإذا بما لم يكن في الحسبان. رأيت سيارة البدين متجهة لبيت عائشة تتبعها سيارة الشرطة. نزلوا من السيارة والبدين يدعي أني ديكٌ متوحش أهاجم الناس في الحارة. كان يريهم الخدوش في رقبته والمكان الذي سقط فيه. استدعى الشرطي العامل الذي في الدكان وسأله، ثم تجمع بعض المارة وسمعوا قصة الديك المتوحش من البدين الذي بهّرها بكل أنواع الأكاذيب. إحدى تلك الأكاذيب هي أنه رأى أنفي يسيل وأني مصاب بالأنفلونزا وأن أنفلونزا الدجاج خطيرة جداً.

كذبة البدين عن انفلونزا الطيور كانت كفيلة بتطوير الوضع إلى حد غير معقول. كنت أراقب التحركات من الأعلى. بعد أن جمع الشرطيان المعلومات أخذا يتشاوران. اتفقا على أن المشكلة كبيرة ولابد من سلطة عليا تتخذ فيها

القرار. هناك ديك متوحش ومصاب بالأنفلونزا. مشكلة قد تشكل تهديداً على مستوى الوطن. هكذا فكّر الشرطيان الغبيّان، ديك يشكّل خطراً على الوطن.

اتصل أحد الشرطيين بقائده ليشرح له الوضع. وهو يتكلم في الهاتف اقترب من جدار البيت فاستطعت سماعه. كان يقول ان ديكاً يهاجم الناس في الشوارع وينقض عليهم من أماكن مختلفة وأنه مصاب بالسعار. وأن شهادات شهود عيان أكدت أنه مصاب بأنفلونزا الدجاج القاتلة. وعدد وردد كل أكاذيب البدين وزاد عليها هو أيضاً، وفي النهاية طلب تعزيزات لمحاصرة الديك.

لحظات ووصلت دورية أخرى، ثم أخرى.....ثم أخرى. سمعت صفارات إنذار مدوية تقترب، كانت سيارات الدفاع المدني....تبعتها سيارة إسعاف. تم إغلاق منافذ الحارة ومحاصرة بيت عائشة وأنا فوق سطحه والبدين كان يمسح على لحيته متوعداً إياي كلما رآني أطل من أحد ثقوب السطح. أخذ رجل الدفاع المدني يهش علي في مكبر الصوت "كششششششش" ..."كششششششش".... وأخذ باقي رجال الشرطة وضعية الاستعداد. كان البدين يحذرهم من شراستي وسرعتي في الانقضاض، ثم نصحهم بتقليد صوت الدجاجة لحثي على النزول، كان يريد الاستهزاء بي بالطبع.

أدركت أن الوضع خطير جداً ويتطلب التصرف بسرعة، تفقدت كل الجهات حول البيت دون أن أجد منفذاً أخرج منه. من الجهة الأمامية حيث اجتمع الناس رأيت جارتنا العجوز صاحبة قفص الدجاج، لعل الله ساقها لي لتخرجني من هذا الوضع. فكرت أني لو استطعت الوصول اليها فلن ترضى أن يأخذني أحد منها أبداً. لكنها كانت بعيدة بعض الشيء. لم يكن أمامي خيار آخر سوى المحاولة. تراجعت لآخر السطح وركضت بكل قوتي وقفزت في اتجاهها فارداً جناحيّ. طرت من فوق رجال الدفاع المدني وبعض أفراد الشرطة المتقدمين، هالتهم المفاجأة فانبطحوا أرضاً، بالكاد استطعت أن أصل إلى العجوز ووقفت عند قدميها. وهي شديدة الفرح بي أخذتني

وأمسكتني بجناحي بيد واحدة وهي تقول: "ولد حلال...... أنا أبحث عنك منذ الصباح" وهمّت بمغادرة المكان. حاول رجال الشرطة والدفاع المدني التفاهم مع العجوز لتسليمي لكنها رفضت بشدة. انتصرت العجوز بعنادها الشديد، وقالت مهددة وهي تترك الجمع "إذا رأيت أحداً يقترب من دجاجي، وخاصة هذا الديك، لا يلومن إلا نفسه".

وخابت آمال البدين ذلك اليوم. أودعتني العجوز قفص الدجاج وبقيت لمدة تحوم حول القفص لترى إن كان هناك من سيحاول الاقتراب. أطل البدين بوجهه المنتفخ من وراء أحد الجدران فعاجلته العجوز بصرخة تنعته بلص الدجاج فتوارى يجرّ أذيال الهزيمة.

قبل المغرب بقليل وأنا أقف فوق أحد الصناديق إذا بأحلى مشية رأتها عيناي..... عائشة..... تخضر الدنيا بعيني حين أراها وتهون كل الهموم. جاءتني تحمل صحناً فيه بعض الأرز، جلست بجوار القفص ونزلت لها. وضعت الصحن وقالت: "تفضل". كانت تلومني على مهاجمة البدين. تعتقد أني أنا المتسبب في كل ما جرى. كادت تغص لي حبات الأرز وهي تطلب مني الترفق بأخي "الطيب" على حد قولها. لا أعرف كيف سحرها وجعلها تتعاطف معه. ثم على غير عادتها غضبت منّي ورفعت صوتها تحذّرني من التعرّض له وذهبت. ولّت عنّي وكأن روحي خرجت منّي.

الفصل الثالث

هاقد تخلت عني عائشة أيضاً. لم يبق لي بعد الله إلا العجوز والدجاجات، قضيت أياماً صعبة من الهم والغم. فقدت شهيتي للأكل وأصبح صياحي ضعيفاً. ذات يوم مرت عائشة بجانب القفص وهي ذاهبة إلى الدكان، ركضت لها وصحت وحركت جناحي لكنها لم تعرني أي اهتمام. أثر ذلك فيّ كثيراً، كل الحب الجميل الذي حملته لها أصبح لي عذاباً.

المفاجأة كانت ذات صباح. من الفجر جاءت شاحنة ضخمة ووقفت في الساحة ما بين البيوت. شرع العمال في إنزال وتركيب خيمة كبيرة. كل شيء كنت أستطيع تخيله إلا ما كان مخططاً له. مع طلوع الشمس جاء صبية صغار وجلسوا بجانب القفص يراقبون العمال وهم ينصبون الخيمة. علمت من حديثهم ما أطار عقلي وشوى قلبي. الخيمة كانت لملكة عائشة على البدين. ألف سكين اختلفت على قلبي المسكين. ألم لم أختبر مثله من قبل. كان أهون عندي لو قطّعت رجليّ وجناحيّ ونتف ريشي ثم أطبخ وأنا حي ولا تتركني عائشة. أنا فعلاً لم أكن لآسى على زواجها بأيّ كان لو كنت أعلم أنها ستكون سعيدة. لكن حين تفعل ذلك وهي غاضبة منّي تضيق عن ناري السماوات والأرض.

من شدّة القهر أدخلت رأسي في إناء الماء حتى كدت أختنق، ثم مرّغته بالتراب. كنت أحسّ بغضبٍ شديد من نفسي. أو بالأحرى من الديك الذي أنا عليه الآن. لم أدرِ أي شيطان ركب رأسي فهجمت على الدجاجات

المسكينات أنقرها وأخدشها بأظافري. ثم خرجت أهيم على وجهي بين بساتين النخيل. في أحد البساتين سمعت صياح ديك يستغيث. صعدت على الجدار لأكتشف...... يا للمسكين... كان ديكاً هرماً حاصره قط شرس تحت غصن ليمون يابس. القطط خطيرة لكن حياة ذلك المسكين كانت تستحق المخاطرة. كان القط مشغولاً بمراقبة الديك الهرم، مشيت بصمت على الجدار حتى صار القط أسفل مني. ومثلما ينقض الصقر على طريدته انقضضت على ذلك الهر. أخذته المفاجأة وولى هارباً. خرج الديك الهرم من تحت الغصن وكان قد أخذ منه التعب كل مأخذ. أخذته لساقية فيها بعض الماء الراكد. شربنا وجلسنا للراحة. شكرني المسكين على إنقاذ حياته ثم سألني عن ما جاء بي إلى هنا حيث لم يسبق له أن رآني. حكيت له كل الحكاية، كان يستمع لي باهتمام شديد و ساءه ما فعله البدين بي. أقنعني الهرم أيضاً أن عائشة قبلت بالبدين لسذاجتها وربما ضغط عليها أهلها وعرض علي المساعدة لاسترجاع عائشة، ومع أنه ديك هرم إلا أنه بدا حكيماً وذا تجربة. قبلت بمساعدته واتجهنا إلى حيث نصبت خيمة الاحتفال بالقرب من بيت عائشة، أراد الهرم استكشاف الوضع. طرنا فوق بيت عائشة، ثم بيت الجيران. كان ينظر ولا يتكلم وأنا أتبعه. عدنا لقفص الدجاج. أكلنا وشربنا ثم جلسنا للتشاور.

قال لي:

-لقد تفقدت المكان وكنت أرجو أن أحصل على فكرة تساعدنا في التخلص من البدين، لكني للأسف لم أجد شيئاً.

ونحن نتكلم جاءت شاحنة محملة بثورين كبيرين. أثار ذلك اهتمام صاحبي الهرم. أنزل العمال الثورين وربطوهما على مسافة من الخيمة. قال

الهرم وعيناه تمتلئ بالحماس:

-الآن أعرف ماذا سنفعل.

ثم أردف قائلاً :

-اسمع يا صديقي العزيز. هذان الثوران هما سلاحنا ضد البدين. عقد القران سيتم في المساء، ولابد أن يأتي البدين هنا ليتفقد الخيمة قبل ذلك، وإذا كنا محظوظين فسيأتي قبل أن يذبح هذان الثوران. إن حصل ذلك فإليك الخطة.

- أنت أشب مني وأسرع، ستبقى على مسافة من الثورين، أنا سأطير وأحط على رأس أحدهما، سيجن جنونه، عندها سيقطع الحبل، في تلك اللحظة يجب أن تطير أمامه وسيتبعك بجنون. توجه مباشرة نحو البدين ودع الباقي للثور.

فكرته بدت معتمدة على الحظ لكن لم يكن هناك بديل عنها، ثم أني رغم كل شيء خفت أن تؤدي نطحة الثور إلى إلحاق أذى شديداً بأخي. صعدنا على سطح عائشة نراقب وننتظر ، قبل الظهر كان العمال قد أنهوا بناء الخيمة، وماهي إلا لحظات حتى رأيت سيارة البدين متجهة نحونا من بعيد. نزلنا وبقينا مختبئين على مسافة معقولة من الثورين. ما إن نزل من سيارته حتى انطلق الديك الهرم ينفذ الخطة. حط على ظهر أحد الثورين. تقدمت أنا أمام الثور ببضع خطوات. صعد الهرم على رأس الثور وأخذ ينقره بشدة. جن جنون الثور وصار ينفخ من منخريه ويحاول الإفلات وقد ركز نظره علي. إلتفت ورائي لأتأكد من مكان البدين، وما إن عدت ببصري ناحية الثور إلا ورأيته يقتلع الوتد الذي ربط به ويتجه نحوي. من هول المفاجأة ومنظره المخيف طرت في اتجاه أول رجل رأيته. لم أنتبه أنه الشيخ المسكين الذي

جاء به البدين لعقد القران. عندما تبينت الأمر كان قد فات الأوان. قدّر الله أن الثور لما سدد النطحة للشيخ خفض رأسه لأسفل، فدخل قرناه في ثوب الشيخ ما بين رجليه، ثم ارتفع الشيخ على ظهر الثور وظل متمسكاً بحدبة ظهره فيما ثوبه متعلقاً بقرني الثور. وهكذا هرب الثور وعلى ظهره الشيخ إلى غير رجعة.

رغم أن الخطة لم تسر حسب ما خطط الديك الهرم إلا أننا نجحنا في تعطيل القران لذلك اليوم. خسائرنا تلخصت في اصابات طفيفة لحقت بالعقل المدبر أثناء محاولته القفز عن رأس الثور.أخذت الديك الهرم إلى القفص لتعتني به الدجاجات. كدمة في الرجل وجرح خفيف في العرف. صعدت أنا فوق سطح عائشة أستطلع. يا ويلي مما رأت عيناي. عائشة بين صويحباتها وقد تزينت، تزينت لغيري، يا لقلبي المسكين، لا دموع ديك ولا دموع فيل كان يمكن أن تطفئ جمري حينها. لو لم أنزل حينها لمت كمداً. إنكفأت على نفسي في القفص في أحد الصناديق. لم أستطع النوم تلك الليلة وكنت أتخيل رائحة ريشي المحترق من النار المتقدة في أحشائي. عائشة التي هي أغلى من روحي، كيف تفكّر في غيري؟!.... وتتزين له.... وتشتهي لقاءه... رأيتها فرحة.... ابتسامتها كانت مشعّة.

لمعت في رأسي فكرة جعلتني أنتفض واقفاً وسمّرت ريشي كالأشواك. الهجرة.... قررت الهجرة. لبلاد لا يعرفني فيها أحد، ولا يذكّرني فيها شيء بعائشة وأخي. باعوني بأرخص الأثمان، ربما كنت أتخيل أن يبيعني أخي، لكن ليس عائشة. ما أقسى حين تخونك روحك. كانت الأنوار قد بدأت تصبغ سماء الشرق وأنا أترك بساتين النخيل ورائي مولياً وجهي شطر المنطقة الجبلية، أعرف قرية هناك تسمى الرابية. وأعرف كذلك أن في وسط المنطقة

الصحراوية الفاصلة بيني وبين الرابية هناك بئر يرد إليه أصحاب الإبل ليسقوا إبلهم ولم أكن لأقدم على هذه الرحلة لولا معرفتي بهذا البئر وأني سأجد مكاناً للراحة ولشرب الماء.

مع ارتفاع الشمس اشتدت حرارة الأرض والهواء وأصبح السير لا يطاق، تحاملت على نفسي وأسرعت الخطى لأصل لمكان البئر. ومن حسن طالعي أني وجدت بعض الماء في الإناء الكبير المستخدم لسقي الإبل. شربت ثم غمست رجلي في الماء أبردهما بعد المشي الطويل على الرمال الملتهبة. كان المكان خالياً وهادئاً إلا من حفيف الريح في السدرة الضخمة بالقرب من البئر. ثم بدأت أسمع شيئاً كالهمهمة الآدمية دون أن أرى أحداً. كانت الهمهمة تعلو حيناً وتختفي حيناً آخر. نظرت في كل الأرجاء فلم أجد أحداً. تفطّنت في السدرة وبين أغصانها المتراصّة فإذا بما يشبه هيئة الإنسان. خرجت من الإناء وأخذت أقترب من جذع السدرة بهدوء وحذر. تبينت رجليه المتدليتين حول الغصن. اقتربت أكثر أريد تبين الوجه. بضع خطوات فقط وتلاقت عينانا. أصابتني قشعريرة وقف لها ريشي. لم تكن عيناه عاديتين، كأنّ بصره اخترق رأسي. حدّثت نفسي وأنا خائف بالقول: "هل هذا إنس أم جنّ يا ترى"....... لم أكد أنهي جملتي لنفسي حتى سمعته يقول:

- أنا إنس بالتأكيد كما أبدو، لكنّك أنت لست ديكاً كما تبدو.

تجمدت من الخوف فلم أستطع حتى تحريك بصري وظل معلقاً بعينيه. مرّت لحظات من الصمت كأنها دهر وأحسست أن ريشي يذبل ويتساقط. فاجأني بالقفز من على الغصن والوقوف أمامي. وأنا مازلت في لجّة روعي قال:

- لا تخف..... أنا إنسان عادي. ربما يجدر بي التعجّب كيف أن لك هيئة ديك.

- كيف عرفت أني إنسان ولست ديكاً؟!..... وكيف تفهم ما أقول وأنا أتكلم بلسان الديكة لا بلسان البشر؟!؟!؟.

- لم يكن هذا صعباً أبداً أيها الديك الإنسان. أنا أتعامل مع الجن ويخبرونني أشياء كثيرة. أول ما رأيتك تشرب الماء كنت أحسبك ديكاً عادياً، لكنك حين كلمت نفسك سمعك قرينك الجني ونقل الكلام لي. البشر فقط لديهم قرناء من الجن. لذلك عرفت أنك بشر ولست ديكاً. لكن قل لي كيف صرت على هذه الهيئة العجيبة؟

بعدما سمعت كلامه زال عني الخوف. جلست معه وقصصت عليه كل الحكاية وهو يستمع. عندما انتهيت قال:

- حكايتك غريبة أيها الديك، لكن حكايتي أغرب و أعجب. آهـ لو تعلم لماذا أنا هنا!!!!!.

- ولماذا أنت هنا؟

- هل تصدق أني هنا أبحث عن حمار ناطق اسمه أرمد.

- ماذا؟!؟!؟!؟...... حمار ناطق يتكلم!!! لاشك أنه أمر عجيب. أخبرني عنه.

- سأخبرك ، لكن الأفضل أن نجلس لأن القصة طويلة.

هل تصدّق أيها الديك أنه لم يؤثر في أحد ما أو شيء ما مثل ما فعل ذلك الحمار. ورغم أني كنت أعرفه منذ سنتين إلا أن قصتي معه لم تبدأ إلا بوفاة أبي يرحمه الله، وكنت قبل ذلك أتعجب من صبر أبي عليه، فهو أعور، عينه اليسرى مطفأة، وكان أبي كثيراً ما يعود إلى البيت ورجله اليسرى تغطيها الكدمات لكثرة اصطدامه بجدار سكة النخيل الضيقة.

حين كان أبي يسلم روحه بيني وبين أخي الأكبر، شهق شهقة تحشرجت بعدها أنفاسه في حلقه وكأن روحه كانت قد خرجت فاستعادها للحظة

ليقضي حاجةً في نفسه. نظر لي ولأخي نظرة استعطاف وقال: "أرمد.... الله الله في أرمد.... الله الله في أرمد"، ثم أسلم روحه وارتخت رقبته على يدي التي كنت أسند بها رأسه، انكب أخي على صدره يبكي وينوح، لكني لم أستطع شيئاً من ذلك، فقد أطار عني عجبي من أبي كل شعور...... يوصينا بالحمار وروحه في حلقومه!!!!.. كان حزن أخي على أبي شديداً، كان يحس بالتقصير بحق أبي خلال السنين الماضية بعد أن انتقل للعيش في دولة الإمارات المجاورة. حين عدنا من الدفن ذهب لمربط الحمار وأخذ يحتضنه ويقبله وهو يبكي ويندب، والحمار لا يلقي له بالاً فقد كان يجتر بعض الحشائش. طوال أيام العزاء الثلاثة التي قضاها أخي في بيتنا لم أكن أفتقده إلا ووجدته يسند رأسه على رقبة الحمار ويبكي، لم أتوقعه بهذه الرقة والرحمة، ربما صدمة موت أبي أيقظت فيه المشاعر الطيبة. في اليوم الثالث تدهورت صحة أخي بشدة وأغمي عليه، حملته للمستشفى وهو يهذي باسم الحمار أرمد في غيبوبته، وبمجرد أن أفاق أخذ بيدي وضمها لصدره وهو يقول «أرجوك.... الحمار من بقية أبي، أنت تعرف كم كنت مقصراً في حقه، سأتنازل لك عن المزرعة والبيت وكل شيء..... فقط أحضر لي أرمد ليعيش معي في البيت..... أرجوك .... وأعدك أن أرعاه كما أوصانا أبونا».

كانت فرصة ثمينة بالنسبة لي، سأحصل على كل شيء مقابل حصوله هو على حمار أعور. لم يهمني سبب تعلقه بالحمار وليكن أي شيء. وعدته أن يكون أرمد في بيته من صباح غد وعدت للبيت. قبل أن أدخل البيت مررت لأتفقد الحمار في الحظيرة، كان رأسه للأسفل ، ولمّا أحس بي رفع رأسه والتفت ليراني بعينه الصحيحة، حرك أذنيه للأمام ثم للوراء ثم نفخ الهواء بمنخريه عدة مرات. لاحظت خلو إناء الماء، لعله لم يشرب أو يأكل منذ

يومين أو ثلاثة بسبب انشغالنا بالعزاء، عجلت بإحضار الماء والعلف، أردت أن أسلمه لأخي غداً وهو في تمام العافية.

صباحاً أعددت سيارة "البيك أب" على باب الحظيرة، وبعد جهد جهيد استطعت تحميله فيها، انطلقت في الشارع وأنا غير مبال بالصيحات المستهزئة وأصوات تنبيه السيارات التي تطلق علي كلما مررت بأحد. توجهت إلى المعبر التجاري حيث يمكن إدخال الحيوانات، لكن قيل لي لابد من دخوله الحجر الصحي لثلاثة أيام على أقل تقدير. كان أخي يتصل بي يومياً مرتين أو ثلاث يسأل عنه، وأنا أصبّره وأعده أن الأمر سيتم في النهاية على ما يحب ويشتهي. بعد الأيام الثلاثة أخبرني البيطري أن أرمد مصاب بداء الرمد.

- وما هو الحل أيها الطبيب. يمكنك إعطاءه دواء وبعد ذلك يمكنني إدخاله، أليس كذلك؟.

-لا ليس كذلك. داء الرمد الذي يحمله هذا الحمار لا يمكن الشفاء منه، وكما ترى فقد ذهبت عينه اليسرى بسببه.

-أرجوك، أنت لا تعرف مدى أهمية الأمر، أخي قد يموت إذا لم أستطع إيصال هذا الحمار له..... وقد أوصاه أبي بالعناية به.

- لا يمكن أن أسمح بدخوله، القانون واضح وليس هناك مجال.

وهكذا أعدت تحميل أرمد وانطلقت عائداً للبيت، كنت حائراً في كيفية إدخاله. ثم جاءتني فكرة. فكرت أني لو استطعت طرحه على جنبه وكفت يديه ورجليه ستتسع له سيارة «اللاند كروزر» بعد أن أفكك المقاعد الخلفية، سأعبر به من معبر السيارات المدنية ولن يلاحظه أحد. أعدت أرمد للحظيرة وشرعت في تفكيك مقاعد السيارة من فوري، بعد صلاة الفجر في

اليوم التالي طلبت من إثنين من الجيران مساعدتي. استغرق الأمر حوالي الساعة وبعدها كان أرمد طريحاً على جنبه مقيد اليدين والرجلين. حرصت على تكميم فمه بشريط لاصق لكي لا ينهق عند «كابينة» الجوازات.

توجهت للمنفذ الحدودي وأنا أقرأ بكل آية ودعاء راجياً أن تعمى أبصارهم عنه، لم أعبأ بالروائح الخبيثة المنبعثة من فضلاته التي لم يتوقف عن إخراجها، اقتربت اللحظة الحاسمة ولم يعد أمامي غير سيارة واحدة دون الوصول لنافذة موظف الجوازات..... فتحت نافذتي استعداداً لتسليمه البطاقة الشخصية، تقدمت السيارة التي أمامي وتقدمت وراءها حتى صرت بمواجهة الموظف، مددت يدي بالبطاقة وأنا أتصنع ابتسامة عفوية، ومع امتداد يدي امتد خرطوم رفيع من سائل أصفر من وراء رأسي عابراً نافذة السيارة إلى نافذة الجوازات ليتلطخ وجه الموظف وثوبه. عرفت أنها مصيبة كبيرة. هذه لم أحسب لها حساباً ولم تخطر لي على بال. كان يجب أن ألفّ عضوه الذكري بكيس بلاستيكي لتفادي ما حصل. أخذ الموظف يتشمم ذلك السائل الذي انهمر عليه كأنه أطلق من مسدس مائي ثم أخذ يطلق صيحات التقزز وهو يسأل: "ماذا عندك في السيارة". ارتبكت وأنا أقول: انها عبوة عصير فاسدة انفتقت بفعل الضغط، استدعى موظفي الجمارك ليكتشفوا حماراً مقيداً ومكمماً.

كدت أدخل السجن ذلك اليوم بسبب بولة أرمد، رحم الله أن ضابط المركز المناوب كان رجلاً طيباً، اكتفى بتوقيعي على تعهد بعدم تكرار فعلتي ووضع اسمي في قائمة التفتيش الدائم وعدت للبيت بحماري.

بقيت يومين أفكر في حيلة ما، وأخي لم يكف عن تهديدي بالرجوع عن قراره. تخليت عن فكرة تهريبه من خلال المنافذ الحدودية وبدأت أفكر في

طريقة يمكن بها اجتياز السياج الممتد على طول الحدود الدولية واهتديت لحيلة ذكية للغاية.

حيث يمتد السياج في الأماكن الصحراوية تزحف كثبان الرمل على بعض أجزائه فتشكل جسراً يمكن المشي عليه بسهولة كبيرة، لكن المخاطرة تكمن في وجود كاميرات مراقبة الدوريات..... فكرت وفكرت..... وتذكرت الراكب الآلي المزود بجهاز اللاسلكي الذي يستخدمونه في سباقات الهجن. خطتي كانت أن أبحث عن مكان تغطي فيه الكثبان السياج، أركب الراكب اللآلي على أرمد وأوجهه عن بعد، كما أن أرمد لطول بقائه مع أبي أصبحت تكفيه الإشارات اللفظية ليتحرك في كل الاتجاهات وهو ما أستطيع فعله أيضاً بجهاز اللاسلكي المرفق بالراكب الآلي، وإن نجح في العبور فسأوجهه ليبتعد عن السياج إلى الداخل وبعد ذلك يمكنني الدخول والبحث عنه ، وأما إن رصدته الدورية فإنهم سيعيدونه أو سيحتجزونه في أسوأ الأحوال.

اخترت أن أنفذ خطتي في الليل. بعد المغرب كنت أقترب من الكثبان لأختار بقعة مناسبة لاختراق بحر الرمال، عرفت أني لن أستطيع قيادة «البيك أب» في تلك المنطقة الرملية الوعرة. قررت ترك السيارة وركوب أرمد حتى نقترب من السياج الحدودي. كانت ليلة مقمرة، وكان يفصلنا عن السياج حوالي ثلاثة كيلومترات من الكثبان المتعرجة، حملت معي الراكب الآلي ومنظاراً ليلياً، بدا أرمد سعيداً وهو يمشي بي بين الكثبان، لكنني كنت أضطر للنزول عنه عندما يتحتم علينا صعود أحدها. بعد حوالي الساعة كنت أسير بمحاذاة السياج لأستكشف أنسب مكان للعبور.لم يطل بي الوقت حتى صادفت ما كنت أبحث عنه. توقفت وتركت أرمد في مكانه، خوفاً من كاميرات المراقبة مشيت منحنياً ثم زحفاً حتى اقتربت من المكان المقصود

وتأكدت أنه يمكن المشي عليه إلى الجانب الآخر. لم يبق إلا إعداد الراكب الآلي وتوجيه أرمد به نحو المسار الصحيح.

الراكب الآلي تركيبه سهل للغاية، له حزام يربط على ظهر الدابة، وذراعان، أمامية وخلفية، الأمامية يوضع بها الزمام ويمكن التحكم به ليتحرك في كل الاتجاهات، الذراع الخلفية لها نهاية جلدية تستخدم لضرب الدابة من الخلف لحثها على الإسراع ويمكن التحكم بعدد الضربات وقوتها. هناك أيضاً مكان لتثبيت جهاز اللاسلكي "ووكي توكي" في الراكب الآلي حتى يمكن توجيه أوامر لفظية ، هذا بالذات كان مهماً بالنسبة لي لأن أرمد تعود عليها. فتحت جهاز اللاسلكي المثبت بظهر أرمد وتركته لأعتلي فوق أعلى كثيب حيث يمكنني توجيهه ومراقبته. في البداية جربت كل الحركات الممكنة عن بعد، كان أرمد يستجيب لها بسلاسة،إلى الأمام ...... إلى اليمين..... إلى اليسار، وعندما حان وقت الانطلاق شددت الزمام وأرخيته، ثم ضربة خفيفة من الذراع الخلفية مع أمر بالتقدم عبر اللاسلكي. وتقدم أرمد نحو الهدف ببطء لكن بثبات.كنت أراقبه بالمنظار إلى أن غاب عني خلف أحد الكثبان. انتظرت أن يظهر لكنه أبطأ. ضربته بالذراع الخلفي وصحت عليه بقوة "تقدم". ظهر لكنه كان يمشي في الاتجاه الخاطئ. عدلت مساره لكنه اختفى خلف كثيب آخر ليظهر مرة أخرى وهو يمشي في الاتجاه المعاكس، حاولت إيقافه بسحب الزمام لكنه أبى التوقف، كنت أراقبه بالمنظار وهو يعاند الراكب الآلي. ثم حدث مالم يكن ليخطر على بال أحد.

صدر صوت من اللاسلكي الذي بيدي يقول: "ساريك من هو الحمار اليوم"....وكأن صاعقة ضربتني.... تخيلت أن شيطاناً استولى على أرمد وهو يكلمني من جهاز اللاسلكي. أطلقت ساقي هارباً في اتجاه السيارة. شيطان

يتلبس بالراكب الآلي ويركب على حمار، هذا كان يقيني حينها. كيف سأنجو منه والمسافة بيني وبين السيارة كبيرة. كلما التفت للوراء رأيته خلفي، جاءني الصوت مرة أخرى من جهاز اللاسلكي: "لماذا يهرب عني يا ترى.... ما الذي يخيفه". كاد أن يضحكني مع شدة خوفي، شيطان يطاردني وهو يمتطي حماراً.... كيف لا أخاف؟!..... ثم قال: "أخشى أن يذهب بالسيارة ويتركني هنا"............. جعلني هذا أبطئ من عدوي..... ثم قال الصوت: "لا أستطيع مواصلة الركض في هذه الكثبان.... حوافري تغوص عميقاً".... هذا كلام الحمار لنفسه!!!...... هل يمكن وهل يعقل هذا!؟!؟.

توقفت أنتظره على رأس أحد الكثبان ومازالت الرهبة تملأ قلبي منه. ظهر من بعيد وهو يجاهد للمشي وانتزاع قوائمه التي تغوص عميقاً في الرمل. مشى حتى وصل بأسفل الكثيب ونظر لأعلى. ظهر صوته في جهاز اللاسلكي وهو يقول: "الحمد لله أنه لم يذهب..... ماذا يفعل هناك في الأعلى".

صرت على ثقة حينها أن أرمد هو من يتكلم فناديت عليه من أعلى "لقد سمعتك يا أرمد وأعرف أنك تتكلم.....سمعتك في جهاز اللاسلكي المثبت على ظهرك»

التفت في اتجاه ظهره ثم قال:

- إذن انكشف سري بعد طول كتمان.

لدقيقة وقفت جامداً يغمرني إحساس أني في حلم، كانت رهبتي كبيرة منه، هو أيضاً بقي صامتاً وينظر لأسفل يطوح رأسه ذات اليمين وذات الشمال. انقطع الصمت حين رفع رأسه وقال:

- ماذا تنوي أن تفعل؟......... هل ستتركني؟

صوته المستجدي المستعطف أشعرني بالطمأنينة، نزلت من على الكثيب

واقتربت منه حتى استطعت رؤية لمعان عينه في ضوء القمر. قلت له:

- من أنت؟!؟!........ هل أنت إنسان على صورة حمار؟!؟!...... .أخبرني.

- أنا حمار كما تراني.

- لكن الحمير لا تتكلم.

- ها أنا أتكلم معك الآن. معلومتك هذه عن الحمير خاطئة. سألتك ماذا تنوي أن تفعل معي ولم تجبني؟

- لابد أنك تعرف أني كنت أزيد أن أعطيك لأخي، وكونك حماراً ناطقاً لا يغير من الأمر شيئاً، بدلاً عنك سأحصل على البيت والمزرعة.

- لكني لا أريد أن أعيش عند أخيك، لقد تعودت على العيش في زريبتي.

- أخبرني بكل شيء، أنا أعرف كم يحب أخي المال. لماذا أنت أثمن عنده من البيت والمزرعة؟!؟!......وهل يعرف أنك تتكلم؟.

- هذه أسئلة يستطيع أخوك أن يجيب عليها وليس أنا.

- إذن فلا فرق عندي ، سأسلمك له.

- لا أستطيع منعك من هذا، لكن هل لي أن أرشدك لطريقة سهلة للعبور بي نحو الجانب الآخر من الحدود غير التي كنت تنوي أن تفعلها؟.

- وما عيب هذه الطريق؟!..

- عيبها أني رأيت حماراً ميتاً بقرب السياج ،كان مصاباً برصاصة في رأسه، لابد أن الشرطة تطلق النار على الحمير السائبة، لو حدث وأطلقت رصاصة على رأسي فلن تحصل أنت على شيء.

-وهل لديك سبيل آخر؟.

-نعم، هناك طريق جبلي في الجهة الشمالية ينتهي بمنفذ صغير للمشاة يستخدمه أصحاب العزب ، المتعب في الأمر أني سأضطر لحملك على ظهري مسافة طويلة وفي طريق صعبة.

وهكذا اتفقنا على أن نعود للبيت ونخرج غداً من الفجر. في الفجر حملت له بعض الحشائش ليأكلها قبل الخروج، لكنه رفضها وطلب أن يأكل برسيماً وتمراً، شعرت بغيظ.

- حمار وتشترط نوع الطعام..!!

- وماذا في ذلك!!!....لقد حملت على ظهري السماد والتراب من أجل زراعة هذا البرسيم والنخيل، أليس من حقي أن آكل منها؟!..

- التمر والبرسيم سيجعلانك تشعر بالعطش، خصوصاً وأن الرحلة طويلة، لذلك قدمت لك الحشائش.

- أبوك أيضاً كان سيقول نفس الشيء.

تركته يأكل وذهبت لأفطر وأجهز الماء والطعام للرحلة، انطلقنا بعد الفجر. سرنا لما يقرب الساعة في اتجاه الجبال ولم نبلغها بعد، وأرمد لم يتكلم، أحسست بالملل.

-مالك صامت يا أرمد؟

- هل تريدني أن أتكلم؟

- الكلام يسلي يا أرمد.....أم أنك لم تكتشف هذا بعد؟

- أعرف ذلك.

- ليتك كنت تفقه شيئاً عن الحب يا أرمد، لكنت كلمتك عن قلبي الذي حطمته حسناء قاسية متجبرة.

- لعلك تقصد ريم!

- ويلك يا حمار....كيف عرفت أنها ريم ؟؟؟؟؟.

- أنا كما قلت حمار، وأذناي كبيرتان، أسمع ما يقال هنا وهناك.

- مممم.....حسناً يمكنك المشي.... هل يضايقك لو دخنت فوق ظهرك؟

- يمكنك أن تفعل ما تريد، بالمناسبة........ أبوك كان يكره شيئين...... أحدهما التدخين.

- أعرف أنه كان يكره التدخين، و ما هو الأمر الآخر؟

- كنت دوماً أتمنى أن أرتدي نظارة شمسية، لكنه رفض أن يشتري لي واحدة.

- وهل فعلاً خطر في بالك أن ترتدي نظارة شمسية؟!؟!........لاشك أنها ستكون بدعة كبيرة في عالم الحمير.

- هذا بالضبط ما قاله أبوك.

- دعنا من أبي فقد مات يرحمه الله وعد بنا لحديثنا السابق عن ريم.

- كما تريد.....أنت مفتون بها بشدة.

-آه يا أرمد، يحق لها ذلك فجمالها باستطاعته فتنة الحمير قبل البشر... لكنها لم تكن قاسية من قبل، كانت تسقيني الشهد والسكر وأصبحت تسقيني المر والعلقم!!!!

ليتني أعلم السر.

- ربما للأمر علاقة بما كان منك مع تلك المرأة.

- ماذا ؟!؟!؟.... لم يكن مني شيء مع أي أحد أيها الحمار الجاهل، فأنا كما يعلم الجميع مثال للاستقامة والورع. المشكلة أنك حمار وإلا لرأيت كيف هو قدري بين البشر، قل لي يا صاحب الأذنين الكبيرتين، ماذا سمعت عني؟

- أنت تقول لاشيء!!!! إذن أنا لم أسمع شيئاً.

- حسناً لنسمع منك أنت إذن، هل تعرف الحمير الحب؟

- بخلاف الإجابة التي تنتظرها..... نعم ، الحمير تحب، أنا الذي يمشي بك فوق ظهره الآن كانت لي في شبابي قصة حب.

- أحقاً ما تقول يا أرمد!!!! يا للعجب...... قصها علي أرجوك وسأنزل وأمشي بجانبك إن كان ذلك يريحك.

- يمكنك البقاء فوق ظهري، لقد تعودت الأمر........ قصتي كانت يوم كنت حراً في البرية.

- قبل أن تكمل..... عندما تقول "حراً".... هل تتكلم بمنطق الحمير أم بمنطق البشر؟

- هل ترى فرقاً ؟

- هناك فرق كبير أيها الحمار، ما نفع الحرية للحمير؟!!؟. يوم كنت حراً كما تقول لم يكن هناك من يعتني بك، ويعلفك، ويسقيك، ويؤويك، فما قيمة حريتك حينها!.

- ولم يكن هناك من يركب ظهري أيضاً..... أظننا متفقان على هذا.

- كيف يمكن أن أتفق مع منطق الحمير؟!..... اترك هذا الجدل وعد لسرد قصة حبك..... حب الحمير!!.

- كما تريد..... كنت يوماً أرعى في أحد الوديان، أتتني مع الريح رائحة من أعلى الوادي، أعرف تلك الرائحة..... رائحة أنثى تطلب الذكر.... تنشقت الرائحة كأنها مسك فُتّ في منخري، تتبعت الرائحة حتى أشرقت عيناي برؤية أنثى بيضاء صغيرة ترتع لوحدها، نصبت أذنيّ ورفعت رأسي وفرجت رجلي ،نفخت بمنخري لأعلمها بوجودي...... ليتك رأيت وقفتي حينها، لقد سحرتها تلك الوقفة وأمالت أذنيها للخلف في إشارة لي لأتبعها، ركضتْ، وركضتُ خلفها، كانت تقصد المنطقة المفتوحة من الوادي، عرفت

أن نارها متقدة وأنها تتعجل اللقاء، كانت تسبقني بأقل من عشرين خطوة، وما إن بلغت راحة الوادي حتى وقفت واستعدت.

كانت رائحتها في تلك اللحظة تتدفق في الهواء كالحمم، وقفت ورفعت رأسي وأغمضت عيني استنشق تلك الرائحة حتى بلغ بركاني غايته وقارب على الانفجار. لكن......

- لكن ماذا أيها الحمار.... أكمل بسرعة.

- يا للأسف.....ما إن فتحت عيني حتى كان هناك حمار آخر قد بدأ بإطفاء نيران تلك الجميلة. يبدو أنه كان مختفياً خلف صخرة كبيرة على جانب الوادي.

- هل هذا كل شيء؟!!؟

- نعم هذه كل القصة.

- آه .... نسيت أنك حمار وأن فتاة الوادي تلك كانت حمارة. كنت مخطئاً ، توقعت قصة حب حقيقية. أتعرف أني بدأت أحسدك، بهذا الشكل تستطيع أن تحب كثيراً دون أن تتحمل أي أعباء.

- جاء دورك الآن لتخبرني عن قصة حبك.

- هاها.....هل أنت جاد؟!؟!؟ لابد أن أكون مجنوناً لأحكي قصة حبي لحمار بأذنين طويلتين.

- لكنك استمعت لقصة حبي للتو، ألم أكن ذات الحمار؟!!؟

- كانت قصتك سيئة ومحبطة للغاية. بدلاً عن ذلك، أخبرني كيف يمكنك الكلام والتفكير وأنت حمار !!!. لماذا أنت دون بقية الحمير.

- هل تستكثر علي هذا الأمر؟!. بالطبع هناك سبب وقصة، لكني لن أخبرك بشيء. فلابد أن أكون حماراً مجنوناً لأحكي شيئاً كهذا لإنسان.

أغاظني رده ذاك فسكتّ عنه. واصلنا السير حتى كدنا نصل لأول الطريق الجبلي وبدأت مقعدتي تؤلمني بسبب عدم اعتيادي على الركوب. قررت أنني بحاجة لبعض الراحة استعداداً للوعورة في الجزء المتبقي من الطريق. توقفنا في ظل سمرة لبضع دقائق، شربنا بعض الماء وأكلنا بعض التمر. استأنفنا السير وفضلت أن أمشي بجانبه لأريح مقعدتي ثم اضطررت للركوب بعد أن صارت الطريق حجرية وصعب علي المشي عليها.

ما كان يشغلني في لحظات الصمت تلك هو عجبي من هذا الحمار المتكلم، وفي الجانب الآخر رغبة أخي في الحصول عليه والتخلي عن كل شيء في المقابل، من المؤكد أن لدى هذا الحمار ما هو أثمن من البيت والمزرعة، وإلا لما طمع فيه أخي..... قررت محاولة استدراجه

-اسمع يا أرمد.....أنت لا تريد أن أسلمك لأخي، وأنا أيضاً أريدك أن تبقى معي لكن...

- لكنك تريد البيت والمزرعة، وهو اشترط عليك تسليمي له.... أليس كذلك؟.

- نعم هو كذلك.... لابد أن عندك شيئاً يريده وهو ثمين بلاشك!!!

- وهل ترى عندي أي شيء ثمين؟!.... نعم أذناي جميلتان لكنهما لا تصلحان له؟!

- أرمد...... أنا متأكد أن للأمر علاقة بقدرتك على الكلام..... أخبرني ولا تراوغ.

- إن أخبرتك بما تريد فهل ستخبرني بقصتك مع ريم وتلك المرأة الأخرى؟

- ما هو سر اهتمامك الآن بقصة حبي لريم؟!

- أريد معرفة الفرق بين حب البشر وحب الحمير.
- سأخبرك بما تريد يا أرمد، لكن أخبرني أولاً أنت؟
- حسناً.....قل لي قبل كل شيء .... هل تؤمن بالأساطير؟
- إني أركب فوق واحدة منها الآن.
- إذا كنت تعتبرني أسطورة فهذا يشعرني بالفخر.
- قلت لك أن تكف عن المراوغة ..... هيا أخبرني بالسر.
- سأخبرك..... لكنني تعبت من الصعود والنزول على هذه الحجارة الصلدة وأنت مستريح على ظهري كالعروس....... ما رأيك لو جلسنا قليلاً.
- لا مانع يا أرمد، نحن بحاجة للراحة على كل حال، ولا تمن عليّ بظهرك النحيل هذا، لقد آلمتني مقعدتي من عظم ظهرك الناحل.

وهكذا توقفنا تحت سدرة في أحد الوديان، كانت الشمس قد اقتربت من كبد السماء وكان لابد من الراحة على كل حال، قدمت له بعض الماء والتمر وجلست بقباله أنتظر أن يفرغ ، بعد أن أكل فاجأني بأمر

- لا أظنك تريدني أن أتبول هنا أمامك، خذني لقرب تلك السمرة هناك.
- ألا تستحي؟!..... إذهب لوحدك وافعل ما تريد ثم ارجع لهنا.
- لا أستطيع...... لقد تعودت على أن يقودني أحد، إما أن تأخذني وتعيدني أو أفعلها هنا.

وهكذا أخذته ليقضي حاجته ثم عدنا لمكاننا الظليل تحت السدرة وشرع أرمد في الكلام:

- هل سمعت يوماً بأسطورة أحجار المعرفة؟
- لا لم أسمع بها......ماهي؟.
- تقول الأسطورة ان الشجرة التي أكل منها آدم في الجنة هي شجرة

المعرفة، قطف من ثمارها وأكل فاكتسب المعرفة، فصار لزاماً عليه حينها تحمل المسؤولية فأهبط إلى الأرض. كان قد بقي عنده بعض تلك الثمار فألقاها وهو نادم على أكلها، ولأنها لا تنمو على الأرض فقد تحجرت مع مرور الزمن وانتشرت في الأرض، وأيما كائن ابتلع شيئاً من تلك البذور المتحجرة تفتقت المعرفة في ذهنه كعيون الماء الجارية.

- وهل ابتلعت أنت إحدى تلك الأحجار يا أرمد؟

-ربما.

- ربما!!!!!!..... ماذا تعني بربما؟

- أعني أني لست متأكداً. في أحد الأيام التي أنهكني العمل مع أبيك وأخذ مني الجوع كل مأخذ هربت منه للصحراء، وأخذت في أكل كل ما بدا لي يشبه طعامي، وفي صباح غد صرت أنا الذي أكلمك الآن. ربما ابتلعت حجراً دون أن أشعر من شدة الجوع وكان هو حجر المعرفة.

- وماذا يحدث للحجر عندما يبتلعه أحد؟

-تقول الأسطورة أن الحجر يذوب في الجسم وينتقل أثره إلى الذرية من الأب إلى الإبن.

- هذا يعني لو أنك تزوجت بحمارة فستنجب جيلاً من الحمير الناطقة المفكرة!؟

- هذا ما تقوله الأسطورة.

- لا عجب إذن أن يتخلى أخي عن كل شيء مقابل أن يحصل عليك.... لعله سيتخلى عن أحد أبنائه أيضاً في سبيل ذلك. كم برأيك يساوي حماراً ذكياً متكلماً؟!. لكن كيف عرف أخي هذا السر، هل تعتقد أن أبي أخبره ؟

- بل الخطأ كان خطئي أنا. كان أخوك معجباً بانقيادي السهل لأبيك،

وكان يريد حماراً مثلي لأولاده، قبل سنوات جاء بحمارة أنثى وطلب من أبيك أن يبقيها معي لليلة أو ليلتين في الحظيرة حتى ألقحها. مع جمالها وشبابها واستدارتها التي تتسمر في وسطها العين إلا أني كنت واثقاً أني لن أتهور معها. مر اليوم الأول دون أن أقترب من تلك الأنثى المسكينة التي كانت تطلب مني اللقاح وأنا أصدها، في اليوم الثاني لم يقدم لي أبوك شيئاً للأكل، بقيت أتضور من الجوع حتى المساء، ثم جاءني بطعام غريب لم أذق مثله من قبل، التهمته بشراهة كبيرة بسبب الجوع، وليتني لم أفعل. لقد فعل ذلك الطعام فيّ فعله، كان أخوك قد وضع فيه دواء جعلني أُجنّ، لم أقدر على منع نفسي عن تلك الأنثى، رويتها عدة مرات حتى خاف عليها أخوك وأخرجها من الحظيرة. عرفت أني وقعت في مكرهم لكن لم يكن باليد حيلة. بقيت بعدها أنتظر أخبار ولادة ابني من تلك الأنثى، وجاءت الأخبار كما توقعت. ولد الصغير ذكياً ناطقاً، ولما فطن أخوك للأمر أراد أن يكتم أمره فعزله في عزبة منفصله في الصحراء ومنع كل أحد من رؤيته، وفي صباح أحد الأيام وجده ميتاً بسبب لدغة أفعى، ورغم الألم الذي خلفه موته في قلبي إلا أنه أراحني من شعور عظيم بالذنب.

- اسمع يا أرمد..... ما رأيك؟.... سأنسى أمر تسليمك لأخي، لكن لي شرطاً...سأحضر لك من الإناث ما تشاء وتنجب لي حميراً مثلك ناطقين أذكياء.

- لا أقبل.

- لا تقبل؟!!؟..... هل أنت مجنون؟.... سأشيد لك حظيرة فاخرة ومكيفة، وسأقدم لك أجود أنواع العلف والتمر وكل ما تشاء..... ولن أكلفك بأي عمل سوى تلقيح الإناث.... لا يمكنك أن ترفض هذا.

- بل أرفض..... وأرفض..... وأرفض، ذلك بالضبط ما يريده أخوك مني.

- يا للعجب... ولماذا ترفض.

- أرفض لأني لا أريد أن يعيش أبنائي عبيداً لكم، تعلفونهم وتركبون على ظهورهم.

- لكن هذا شأن الحمير دوماً يا أرمد.

- نعم... هذا شأن الحمير، وليتني بقيت حماراً مثل بقية الحمير ولم أبتلع حجر المعرفة، لكنت الآن سعيداً بحياتي.

- إذن سأسلمك لأخي.

- أنت وما تريد...... إن كنت تذكر فقد وعدتني بأن تروي لي قصتك مع ريم.

- أعترف أنك عكرت مزاجي ولم يعد لائقاً به الكلام عن جميلة مثل ريم، لكني لا أمل الحديث عنها في كل وقت. على كل حال تعرف أني معالج شعبي، وأكثر زبائني من النساء.... أعالجهن من العين والمس والسحر وأكتب لهن الحجب.

- أعرف كل هذا، كما أعرف أن لك الكثير من الكرامات والأشياء العجيبة التي يتناقلها الناس عنك.

- الحمد لله أنك تعرف هذا. إذن لتعلم قدري حين أمتطي ظهرك وأشعر بالفخر واشكر النعمة.

- لكنني لست كذلك على الإطلاق. بل أشعر أني حمار.

- هذا لأنك فعلاً حمار، ولو وضعوا أذكى عقل في رأسك لبقيت حماراً.

- هل لي أن أسألك سؤالاً؟!؟!......... عندما كنت أركض خلفك بالأمس والراكب الآلي على ظهري، لماذا كنت تهرب مني؟.

- اعتقدت لبعض الوقت أن شيطاناً دخل في الراكب الآلي ويحاول

أذيتي وهو يمتطيك.

- شيطان!!!! لكنك لا يجب أن تخاف من الشياطين..... ما هي أخبار صديقك الشيطان الأحمر؟!؟!.

- ويلك أيها الحمار، وكيف تعرف هذا الأمر؟!؟!.

- أذناي كبيرتان كما ترى، وبما أني حمار كما تقول فأنا أسمع حتى كلام الجن والشياطين.

- هيا أخبرني بما سمعت.

- قد لا يعجبك خبري وتغضب مني.

- قلت لك أخبرني.

- حسناً...... إذا كانت هذه مشيئتك.... سمعت من بعض الجن أنك اجتهدت في تعلم العلوم الخفية وترويض الجن على يدي أحد المعلمين، وقد أظهرت نبوغاً في ذلك الأمر، كان حلمك هو أن تصل لاستصحاب الشيطان الأحمر ذي القوة العجيبة الذي كان يصحب معلمك ويظهر له ما كان الناس يحسبونه كرامات، وعندما حضرت المعلم الوفاة قال لك أن تنتظر عند بابه إلى أن تأتيك دابة فتركب عليها في الليلة التي تلي وفاته، في تلك الليلة انتظرت حتى منتصف الليل حتى جاء جمل أحمر ضخم وبرك لك. ركبت عليه وارتفع بك بين السماء والأرض. ثم هبط في صحراء خالية وطلب منك النزول. وإذا بالجمل الأحمر قد صار رجلاً ضخماً، وطلب أن يفعل بك ما كان يفعله بمعلمك لقاء ما سيقدمه لك، و....

- أسكت أيها الحمار الغبي القذر الـــــ.......

لقد أثار جنوني حينها، وبدأت أضربه ضرباً شديداً على كل أنحاء جسمه وهو ناكس رأسه، لم أتوقف حتى كلّت يدي وتكسر كل ما استطعت

أن أضربه به. بعد أن هدأت جلست وأسندت ظهري لجذع السدرة، الآن لا يمكن أن أسلمه لأحد خشية أن يفشي ذلك السر الذي يعرفه عني، وبعد تفكير طويل قررت أن لا حل سوى قتله والتخلص منه، ولو كان معي سلاح لقتلته حينها في وقفته تلك، إلا أني وجدت نفسي مضطراً للعودة به وتدبير أمر قتله في البيت. دون أن أكلمه أمسكت بلجامه وقدته متبعاً الطريق التي جئنا منها، كان الوقت عصراً والشمس في وجوهنا، لم أستطع الركوب عليه بسبب إحساسي بالألم في موضع الجلوس، خرجنا من الجبال إلى السهل وقد احمرت الشمس، حينها بدأ هاتفي في استقبال الرسائل النصية والمكالمات وأكثرها كان من أخي الملح في طلب الحمار. إحدى تلك الرسائل النصية كان يقول فيها انه ينتظرني في البيت ليأخذ أرمد بنفسه، وهذا عنى لي حينها أني لا أستطيع العودة للبيت قبل التخلص من أرمد، غربت الشمس وربطت أرمد في جذع سمرة، كانت المرة الأولى التي أربطه فيها منذ أن عرفت حقيقته، ورغم أنه لم ينطق بشيء إلا أنه من المؤكد أنه كان يدرك سوء نيتي به.

جلست على مسافة منه أفكر في أي وسيلة للتخلص منه، تمنيت لو تأتيه الذئاب أو الضباع فتنهش لحمه حت تأتي عليه، طال بي التفكير حتى شعرت بالجوع والعطش، كان الماء والتمر لا يزال على ظهره فذهبت إليه، أخذت الماء والتمر وهممت بالابتعاد، رفع رأسه قليلاً وقال:

-الليل طويل والكلام يسلي، متى ستفي بوعدك عن قصة ريم؟

كنت أنوي تجاهله لكن شوّقني الكلام عن ريم، وما الضير في تمضية بعض الوقت معه حتى أسكن جوعي ببعض التمر والماء، وبما أني سأقتله وأتخلص منه على كل حال فأستطيع أن أحكي قصة ريم دون إخفاء شيء

كما كنت أنوي من قبل.

-لا بأس يا أرمد..... أظن أن لدينا الوقت للاستمتاع بذكرها تلك الجميلة.

لقد بدأت قصتي معها ذات يوم حين جاءت جارتنا أم علي تتبعها إمرأة حسناء بدت في الأربعين من عمرها، وجهها كأنه قمر رغم أمارات البؤس والفقر. لم أستطع رفع عيني عنها حتى رأيت الشمس التي كانت تمشي وراءها، كانت تلك هي ابنتها وحبيبتي ريم، كانت تبدو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، جسمها ممتلئ وثمارها في أول نضوجها. جلست المرأتان أمامي وهي وراء أمها، كنت أختلس النظر لها متحاشياً نظرات أمها. بدأت جارتنا أم علي تبكي وتندب حظ تلك المرأة، قالت إن زوجها يهجرها لأيام عديدة ولم يعد ينفق عليها وعلى ابنتها، وأنه وقع في حبائل امرأة أخرى. طلبت من جارتنا أن تخرج لأسأل المرأة عن خاصتها مع زوجها، ولما خرجت سألت المرأة إن كان زوجها يطارحها حين يأتي البيت، حينها نظرت في عين ريم فرأيت البسمة المطموسة وسطها، ردت علي الأم بأن زوجها لا يأتي إلا كل أسبوعين أو ثلاثة، وأنه لا يبقى سوى يوم أو يومين ولا يقربها أثناء ذلك.

أخبرتها أن زوجها قد ربط عنها بسحر، صنعت لها بخوراً لتتبخر به عندما يأتي وكتبت لها شيئاً تذيبه في الماء وتستحم به. اعتذرت أنها فقيرة جداً ولاتستطيع أن تدفع لي شيئاً فبينت لها أني لا أطلب شيئاً وأن ذلك كان لوجه الله، سألتها عن بيتها فعرفت أنها تسكن في أحد البيوت القديمة بالقرب من المزارع.

في المساء أخذت بعض المواد الغذائية وذهبت لبيت المرأة كما وصفته لي، أوقفت سيارتي في زاوية البيت المظلمة وطرقت الباب، فتح الباب وأطلت الجميلة بوجهها، زاد لهفتي عليها لمعان عينيها، خفضت بصري بعد أن أوجعني جمالها في قلبي، أخبرتها أني أحضرت لهم شيئاً، تبسمت

والتفتت للداخل تنادي أمها، جاءت الأم، ولما رأت ما أحضرته أمطرتني بالشكر والدعاء، كانت الأشياء ثقيلة ولذلك كان علي أن أدخلها بنفسي، كان الفقر يسكن بكل مكان من ذلك البيت، وضعت الأشياء في المطبخ الذي يكاد يخلو من كل شيء.

عند باب المطبخ من الخارج لاحظت موقداً للنار، وكأنهم يستعملون الحطب بدل الغاز، كل الغرف مظلمة باستثناء مصباح وحيد عند باب المطبخ يضيء ساحة البيت، بعد أن انتهيت من إدخال كل شيء عزمت علي الأم لأخذ فنجان قهوة، أشفقت عليها لظني أن ليس لديها قهوة، لكنها أصرت وأسرعت لفرش حصير قديم وسط الساحة، لم تترك لي خياراً سوى الجلوس، جلست ريم على طرف الحصير، لم أعرف أين اختفت الأم، نظرت لريم فإذا بها قد احتضنت ركبتيها إلى صدرها في جلسة طفولية، قالت:

- شكراً لك يا عمي.

- لا تشكريني، هذا واجب علينا.... أين ذهبت أمك؟

- لابد إنها ذهبت لتحضر قهوة من عند جارتنا، كل شيء نحضره من عند الجيران، إنهم طيبون ولاندري لولاهم كيف كنا سنعيش..... حتى الكهرباء قطعت عنّا فزودنا الجيران بوصلة لإضاءة هذا المصباح.

- ليس عليك أن تقلقي بعد اليوم، ما دمت موجوداً فلن تحتاجي لشيء ؟

- شكراً لك يا عمي..... أنت ساعدتنا بما فيه الكفاية.

- لا تخجلي مني وليس عليك أن تناديني "ياعمي".... أنا ما زلت في الثلاثين، نادني حميد؟

- أخجل أن أناديك باسمك.... أنا اسمي ريم.

- لا لا تخجلي أرجوك. هل تدرسين؟

- لا ... تركت الدراسة حين تزوجت قبل سنتين.

- أنتِ متزوجة!؟!؟.

-زوجني أبي لرجل غريب، بقي معي لشهرين ثم اختفى..... بعدها عرفت أنه توفي.

فاجأتني الأم بدخولها وأنا أنظر في ذلك الجمال الخجول. جاءت بالقهوة والتمر ووضعتهما أمامي، لم تترك دعاءً إلا ودعت لي به، كانت في غاية الامتنان لما أحضرته لهم، سألتها عن موعد قدوم زوجها فقالت ان ليس له موعد محدد، قد يأتي مرة في الشهر أو مرتين. سألتها إن كانت تريد شيئاً فسكتت، ثم نظرت لريم وكدت أذوب في عينيها، التفتت لأمها وأخبرتها أني سأتكفل بإعادة الكهرباء، فرحت الأم المسكينة وبدت كالطفلة وهي تشكرني.

في الليلة الثانية ذهبت حاملاً اسطوانة غاز جديدة، وكنت قد دفعت فاتورة الكهرباء في الصباح فكان البيت مضاءً بخلاف الليلة السابقة، دخلت وأشرق قلبي بتلك الجميلة، في هذه المرة اقتربت مني أكثر وبدت مرتاحة في جلستها، خرجت الأم كما يبدو لبيت جارتها فكانت فرصة لأعطيها قلادة ذهبية اشتريتها لها، عندما أخرجتها من جيبي ومددت بها يدي شهقت من الفرحة.

- هذه لي أنا؟!؟!؟!

- نعم لك ياريم..... هيا خذيها.

- هل تعلم أني حتى في زواجي لم أحصل على شيء ذهبي.

أخذتها وقد سالت دموع الفرحة الصافية من عينيها ثم ظلت تنظر لها بإعجاب.

-هل أستطيع أن أرتديها؟

- بالطبع تستطيعين..... هي لكِ، فقط احرصي أن لا تراها أمك.

لفّت القلادة حول عنقها وحاولت شبك طرفيها خلف رقبتها، كانت تستعجل ذلك فلم تفلح وسقط غطاء رأسها على كتفيها، اقتربت مني واستدارت نحوي برقبتها، كاد عقلي يطير بها وبالكاد استطعت شبك طرفي القلادة. عادت لجلستها وهي تتلمس حرف القلادة بين ثمار صدرها. صحوت من غيبوبتي على صوت اصطدام الصحن بالباب عند دخول امها.

أدمنت حب تلك الصغيرة، كل ليلة أذهب لها حاملاً شيئاً ما، وسقط بيننا حاجز الحياء، صارحتها بهيامي بها وما كانت تمكنني من نفسها إلا بقدر ما يزيد لهيبي، في إحدى الليالي حملت لها ثوباً جميلاً. عزمت أن لا أعطيها إياه حتى تمكنني من نفسها ولو بثيابها، عندما جلسنا استأذنت أمها لتغسل الثياب وطلبت من ريم أن تقدم لي واجب الضيافة، دخلت ريم للمطبخ لتعد القهوة وأنا أنظر لها من مجلسي في وسط الساحة، كانت تتعمد إشعال ناري، مرة باستدارتها ومرة بمص إصبعها الذي لفحته حرارة النار..... لم أطق صبراً، حملت الثوب لها ودخلت، أطار الثوب عقلها حين فردته على طولها، استدارت به في اتجاه الباب حيث اشعاع المصباح، لم أطق صبراً عليها فاحتضنها من الخلف..... سكنت فلم تتحرك أو تتكلم..... ثم أسندت وجهها لجانب الباب وضمت يدها لصدرها وكأنها أسلمت لي..... ثوانٍ قليلة.... ولو طالت لثوانٍ أخرى لكانت كافية..... طفرت القهوة التي كانت على النار وسقط غطاء الإبريق على الأرض ووقع صوته علينا كالقنبلة،صرخت ريم من المفاجأة.... فكت يدي عنها وطلبت مني الخروج من المطبخ قبل أن تأتي أمها، خرجت وأنا أترنح من سكرتها وعدت لمجلسي.

تلك الليلة أصابني الجنون، وربما لو صادفت حمارة من جنسك لكنت أتيت عليها....... هل مازلت تستمع لي يا أرمد؟

- بالطبع.....لم يفتني حرف واحد.....لكني أنتظر الجزء المهم لأعلق عليه.

- وهل كل ما حكيته حتى الآن لا يستحق التعليق؟

- من وجهة نظر حمار مثلي لا ......أنت حتى الآن لم تصب الهدف.

-آهـ...... نسيت أنك حمار ولا هم لك سوى الحُفر.

- وما عيب الحُفر!!!!! أليس كل شيء يخرج من حُفرة ويدخل في حُفرة؟!؟!.

- تحتك الأرض واحفر قدر ما تشاء ودعني أكمل القصة ...... عدت في الليلة التالية بهدية أثمن لريم، ولم أنسَ أمها هذه المرة، صارت تغرقني بهواها أكثر كلما كانت الهدية أغلى، وكان طول غياب الأم أيضاً مناسباً لهديتها. صحيح أني كنت أنفق كل ما عندي عليها لكن لم يهمني ذلك. همي بدأ منذ حوالي الشهر، يومها أتتني ريم وأمها صباحاً، تحرجت من وجودهما وطلبت منهما الانصراف إلا أنهما رفضتا الذهاب قبل الحديث معي، كانت ريم تبكي وأمها مغتمة بشدة، سألت الأم

- ماذا أتى بكما إلى هنا ولماذا ريم تبكي ؟

- لقد أتى أبوها البارحة بعد أن ذهبت، كان شديد الغضب بعدما سمعه من ترددك الدائم علينا في الليل، سأل عنك فأخبرناه أنك تساعدنا وتعيننا على أمورنا وأنك رجل فاضل، لكنه كان شديد الغضب وأخذ يضربني ويضرب ريم. لقد هربنا من البيت بثيابنا فقط وها نحن بين يديك الآن وليس لنا بعد الله إلا أنت، لا أهل لنا غيرك ولا أحد يرحمنا على الأرض سواك.

كنت أخاف أن يراهما أحد عندي فأفتضح، أعطيتهما بعض المال وواعدتهما في المساء عند المستشفى، قضيت طول النهار أبحث عن بيت

للإيجار في مكان لا يعرفني فيه أحد حتى أتردد على ريم بسهولة. وجدت بيتاً في إحدى الحارات القديمة. في المساء أوصلتهما للبيت وأعطيتهما بعض المال لشراء الضروريات. استقرت أمورنا مرة أخرى، ولكن فقط حتى حين.

ذات ليلة لمّا اختليت بها بكت......

- ماذا يبكيكِ يا حبة الرمان؟

- حميد.... أنا حامل. كنت أشك منذ بضعة أيام لكني اليوم تأكدت.

كأن قطعة خرسانية سقطت على رأسي من سقف الغرفة، أو كأنه يوم الحساب. ذبلت كل نقطة في جسمي وأحسست أني كبرت مائة سنة، بل لقد خرجت من عندها وظهري قد انحنى. لم أعد لها إلا بعد ثلاثة أيام. فوجئت بوجود سيارة أمام الباب. اعتقدت أنه أبوها قد اهتدى للبيت مؤخراً، بقيت في السيارة أراقب من بعيد. انتظرت لفترة طويلة حتى انقضى أكثر من نصف الليل، ثم خرج من البيت شاب في مقتبل العمر، لم يغلق الباب وراءه ، أسرعت للدخول، صادفت ريماً وهي قادمة لإغلاق الباب. فاجأها دخولي، كانت ترتدي رداءً فاضحاً. سألتها من يكون الخارج، قالت إنه أخوها ولم تذكر لي يوماً أن لها أخاً.....ثم ظهر ابن عمها..... وابن عمتها... وغيرهم كثيرون مرّوا وشربوا من غديرها وأنا أراقب.....عرفت ما كان يجري، ومع ذلك رضيت وسكت ودفعت لها إيجار البيت واستدنت المال لشراء الهدايا، لكنها تطلب المزيد والمزيد، وقد تطردني إن جئتها خالي اليدين. المصيبة الكبرى حين تضع مولودها، أي فضيحة ستلحق بي حينها!!!!

هذه هي قصة ريم يا أرمد.

- لكنها ناقصة.....إنك لم تأتِ بالجزء الأهم......بداية القصة.

- بل أتيت بها كلها، لعلك كنت حينها تفكر في حمارة

الوادي ولم تسمعني؟!؟!؟

- بل سمعت كل شيء، دعني أذكرك ...... هل تذكر زوجة مهدي التاجر عندما أتتك في إحدى الليالي لتتطبب عندك......... هل ما زلت تذكرها؟!؟!.

- حمار خبيث!!!.... ما أشد حبك لهذه الأمور!! بالطبع أذكرها.

في إحدى الليالي عدت للبيت لأجد سيارة فارهة أمام الباب، وما ان نزلت من سيارتي حتى فتح باب تلك السيارة ونزلت مليحة زوجة مهدي التاجر، كنت أعرفها وهي لا تعرفني، رغم أن أولادها في سن الزواج إلا أنها مازالت تخطف البصر بجمالها، جاءتني رائحتها مع الهواء فاشتقت لها. سلمت علي وسألتني إن كان البيت هو بيت الشيخ حميد

- نعم وصلتي..... هذا هو البيت وأنا الرجل المقصود، تفضلوا بالداخل.

- أنا أنتظر هنا منذ بعض الوقت، كدت أذهب...... أخيراً أتيت، لقد أتيت من مكان بعيد.

دخلت المرأة مع سائقتها الفلبينية، وبعد عدة تلميحات فهمت منها أن زوجها لم يعد يعاشرها وتشك بأنه يعاشر أخريات غيرها، وضعت بعض البخور لأشعل أنوثتها وخرجت عنها لفترة قصيرة، دهنت يدي ووجهي بالصندل لأزيد من تأثيري عليها، عدت فإذا هي قد ارتخت في جلستها، أخبرتها أني حسبت لها ولزوجها وأن السحر قد عمل لها وليس لزوجها.

- لي أنا يا شيخ.... من عمله لي؟.

- لا ترتاعي، هو سحر ضعيف ويمكن فكه بسهولة، من عمله لك أراد لزوجك أن يكرهك..... كان يصور له صورتك قبيحة كلما نظر إليك.

- أرجوك فكه عني يا شيخ ولك مني ما تريد.

بدأت أهمهم، تلوت بعض الطلاسم ثم هززت رأسي وصحوت من غيبوبتي، طلبت منها إخراج السائقة الفلبينية لأن الجان الذي يأتيني لا يحب غير المسلمين. خرجت السائقة ، وضعت المزيد من البخور واقتربت منها، وضعت يدي على رأسها وتلوت عليها ما أتلو لإخراج الجن والشياطين..... لكن لم يحدث شيء

- هذا الشيطان يخشى الخروج منك.

- لماذا يا شيخ؟

- أنت على طهارة، ويخاف أن يحترق إن حاول الخروج. لابد أن تكوني جنباً...... لكن لا تقلقي سأتدبر الأمر......

عدت للطلاسم ومسحت على وجهها بالصندل.... بدأت ترتخي شيئاً فشيئاً...قربت وجهي من وجهها فكانت بغيتها مني أكثر من بغيتي لها. بعد سويعة كان الشيطان قد خرج منها وزال عنها الكدر والخوف. خرجت وهي مبتهجة بعد أن أعطتني بعض المال.

والآن ما رأيك أيها الحمار، لابد أنك توافقني أني أصبت الهدف هنا وبسرعة؟؟؟.

- أوافقك أن الهدف أصيب، لكنك كنت مجرد أداة، من أصاب الهدف هو ذلك الشيطان الأحمر.

- لا تأتي على ذكره مرة أخرى وإلا ضربتك أكثر مما ضربتك حين ذكرته أول مرة.

- أمرك.... لن أذكره...... هل تذكر حين قلت لك أن لأمر ريم علاقة بالمرأة الأخرى؟....... أنت أنكرت الأمر.

- نعم أذكر. هل تقصد مليحة زوجة التاجر؟!. «ومالها ومال ريم»؟!؟!

- لو كنت حماراً لعذرتك. مليحة عندما ذهبت عنك وجدت في نفسها ما فعلته بها وهي في سكرتها. أرادت أن ترد لك الدين فاستأجرت ساقطتين هما ريم وتلك المرأة التي حسبتها أمها، دفعت لهما المال ورسمت لهما الخطة لتوقعا بك........هذه هي بداية قصتك مع ريم يا ....

- إقطع.... وإلا اقتلعت لك عينك الصحيحة.

- غضبت؟!؟!؟..... إني أعذرك.... من يجد نفسه مخدوعاً وهو يظن نفسه ذكياً لابد أن يغضب، لكن هذا لن يفيد بشيء، ريم مازالت هناك تنتظر المزيد من المال وتهددك بالفضيحة، ماذا ستفعل؟....... ستقتلها مثل ما تنوي أن تقتلني...تلك أهداف أخرى لشيطانك الأحمر يريد أن يصيبها بك.

- ما أدراك أني أنوي قتلك؟

- عندما ربطتني عرفت، لكنني أتمنى قبل ذلك أن أريك شيئاً رآه أبوك مني قبل موته.

- ماهو...... هيا أرني.

- يمكنك النظر إليه عند كاحل رجلي اليسرى.

استدرت خلفه لأنظر عند كاحله، وما إن طأطأت رأسي حتى عاجلني برفسة قوية على جبهتي أحسست معها أن دماغي ارتجّ في جمجمتي. غبت عن الوعي، رأيت في غيبوبتي حياتي الماضية، رُدّت علي كل أفعالي أمامي، وكنت أفزع من نفسي وأنا أراها تقترف كل تلك الفواحش، حاولت إيقافها لكنها أبت إلا أن تمضي حتى تم العرض للنهاية. أموال أكلتها بالباطل، تقيأت عندما رأيت نفسي آكلها..... أعراض انتهكتها، تمنيت لو تقطّع جزء مني وتتوقف تلك المشاهد التي كنت أراها. كل هذا

وذلك الشيطان الأحمر راكب فوق ظهـــري ويطوق بيديه رقبتي. كان يتعاظم وينتفخ كلما ارتكبت شيئاً.....

صحوت وقد بدأت أنوار الصبح بشق الظلمة، وأحسست أن روحي قد اشتاقت للنور ، وتمكنت مني قناعة أن النور في الحقيقة، ولابد من مواجهتها..... خلال تأملي كنت أنظر لأرمد وهو يتشمم الأرض بحثاً عن شيء يأكله، أحسست نحوه بعاطفة قوية، وتذكرت وصية أبي عند موته، حملت له ما تبقى من التمر وقدمته له، كنت أمسح على رقبته وهو يأكل، عندما انتهى قال:

- نومك كان قلقاً هل كنت ترى أحلاماً مزعجة؟

-لا ...... لقد رأيت أني أطلقك لتذهب حراً طليقاً.

- آهـ.... لكني حمار وتعودت على أن يقودني أحد.... لا تصلح الحرية لمثلي.

- بل تصلح....الحرية فطرة، ولابد أنها فيك، فقط جربها ولن تستغني عنها.

- هل أنت متأكد..... ألا تخشى أن أفضي لأحد بأسرارك؟

- أنا متأكد، ولم أعد أخشى الحقيقة.

خلعت الزمام عن ارمد وأنا أحس أني أخلع الظلمة عن روحي وعقلي، انطلق حتى اعتلى تلة قريبة والتفت نحوي من فوقها يودعني ثم اختفى وراءها، لم أره بعدها إلا بعد ثلاثة أشهر مع قطيع من الحمير في هذا المكان وعند هذه البئر، وها أنا ذا قد جئت أبحث عنه الآن.

الفصل الرابع

- فعلاً إنها لقصة عجيبة غريبة.... لكن ما الذي دعاك للبحث عن أرمد الآن؟

- آه أيها الديك العزيز. لقد فعلت بي تلك العاهرة الأفاعيل. خسرت كل ما أملك عليها، حتى أصبحت فقيراً أسأل الناس. ومع كل ما فعلت مازال حبها يرعى عشب قلبي ولا أجد فكاكاً منه. قريباً ستضع مولودها وهي تدعي أنه ابني، ولست أدري كم واحداً غيري شاركني في ملء بطنها. لقد ضاقت بي الدنيا ولم يتبقّ لي غير أرمد أشكو له الحال. علّه بحكمته يرشدني لأمر ما أنجو به مما أنا فيه.

- هل تعتقد أنه من الممكن أن يساعدني أنا أيضاً؟.

- لا أدري إن كانت له خبرة بتحول البشر إلى دجاج لكن لن يضيرك أن تسأله.

- إذن سأبقى معك وسأعرض عليه ما أنا فيه. هل أنت متأكد أنه سيأتي لهذا المكان.

- بالطبع سيأتي، فليس هناك مورد ماء آخر حتى مسافة بعيدة. أنا أنتظر هنا منذ الفجر، ولابد أن يظهر قطيع أرمد بين لحظة وأخرى ليشرب فالحر شديد.

انتظرنا حتى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم حتى لمحنا قطيعاً من الحمير يتجه للبئر، كنا أنا وحميد جالسين على غصن مرتفع في السدرة حين أشار حميد لحمار متقدم عن بقية القطيع على أنّه أرمد.

لم يطق حميد نفسه من الفرحة حتى يقترب أرمد فألقى بنفسه من فوق

الغصن للأرض ثم قام يركض باتجاهه. سبب ذلك فزعاً للحمير فشردت في كل الاتجاهات إلا أرمد الذي وقف هادئاً حتى وصله حميد وعانقه وأخذ يقبل رقبته ورأسه وأذنيه. كان أرمد يمشي بوقار وتؤدة فيما كان حميد يقفز أمامه كطفل صغير يحكي لأمه عمّا فعله خلال يومه.

للحظة نسيت أني ديك، واستكثرت تلك الحفاوة والتقدير الذي يحظى به الحمار أرمد من حميد. فردت جناحي وهبطت لأسفل السدرة. اقترب أرمد ووقف أمامي وبجانبه حميد. لم أرَ فيه شيئاً يميزه عن بقية الحمير. دخلت ذبابة كانت تدور حول وجهه في أنفه. طوح برأسه بشدّة وهو ينفخ الهواء من منخريه ليطردها. أعاد تركيز بصره علي وقال:

- هل فعلاً أنت إنسان كما يقول حميد؟! أنت كما تبدو لي ديك.

- ديك!!!! ماذا تقول؟ أنا إنسان، وأما هذه الهيئة التي تراني عليها فقد حصلت بفعل تغير هرموني. هذا إن كنت تفهم ما هو التغير الهرموني أيها الحمار الأعور.

- مممممم.... هذا هو رأيك في نفسك، لكننا لو سألنا معظم الناس لقالوا انك ديك وكفى، أما أنا الحمار الأعور فقد رفعت من قدرك واعتبرتك ديكاً عاقلاً حين كلمتك. ما رأيك لو ادعيت أنا أيضاً أني إنسان؟.

كنت أنوي أن أردّ عليه لولا تدخل حميد بالقول:

- لا أريد أن أمضي بقية اليوم أستمع لجدال بين ديك وحمار. لقد عانيت كثيراً بعد أن تركتني يا أرمد، وقد جئت لك خصيصاً لتنير لي الطريق بحكمتك.

- ماذا تقول يا حميد؟!.... وكأني لم أخبرك بالقصة!... هو حمار نعم لكني

لست ديكاً.

نفض أرمد رأسه ونفخ منخريه ثم خطا خطوة للأمام وهو يقول:

- لنتعامل على أننا عقلاء فقط ولنترك النظر للمرايا. إئذنوا لي دقيقة، سأشرب وأعود لكم.

يبدو أن أرمد بدأ منذ حينها يسيطر على مجرى الأحداث. بقينا صامتين منتظرين له حتى شرب وعاد. كان حميد شديد العجلة ليبث شكواه لأرمد، سرد له كل شيء. كنت أنا أيضاً أستمع بصمت، وحين انتهى حميد كانت الشمس قد قاربت على المغيب. جاء دوري بعد ذلك لأقص على أرمد كل معاناتي، وبعد أن انتهيت قال أرمد:

- أنا أيضاً لدي مشكلة. أريد نظارة شمسية.

لا أخفي عليكم، كلامه أصابني بنوبة ضحك وأنا أنظر لشكله بعد أن أنهى جملته تلك. تقلبت على بطني وظهري من الضحك وأنا أرفس برجلي في الهواء. عندما أفقت قلت له:

- أنا شديد الامتنان لك يا أرمد على هذه الدعابة، لم أتوقع أني سأضحك وأنا على هذه الحالة من الأسى.

- لم تكن دعابة على الإطلاق أيها الديك. ألم نتفق قبل قليل أن نتعامل كعقلاء فقط.؟!

- نعم ولكني كنت أتعجّب كيف ستضعها على عينيك.

- ههه... قد يساعدني أحدهم في هذا بيديه. لكن الأعجب من ذلك هو حين يريد ديك مثلك أن يتزوج بتلك التي اسمها عائشة. كيف ستنام معها يا

ترى؟!؟!؟...هل سيساعدك أحدهم بعضوه التناسلي؟!.إسمعا أنتما الإثنان....أنت يا حميد وأنت أيها الديك جئتما طلباً لمساعدتي. أنا مستعد لتقديم المساعدة ولكن لي شرطين. إما أن تقبلا بهما أو أعود لقطيعي. شرطي الأول هو أن نبقى معاً وأن تكون القيادة لي، وشرطي الثاني أن يذهب حميد غداً صباحاً ويأتي لي بنظارة شمسية من نوعية ممتازة وأن تكون عدساتها مطلية بطبقة عاكسة.

قال ذلك وأشاح عنّا بوجهه بعيداً كأنه يهددنا بالمغادرة. تبادلنا النظرات أنا وحميد. لم يكن أمامنا خيار آخر، وكان سكوتنا علامة قبولنا .في الصباح الباكر غادرنا حميد للمدينة ليشتري النظارة. أرمد قام ليرعى، وكنت أفكر متعجباً من نفسي كيف أسلمت قيادتي لحمار يرعى الحشيش حين انتبهت لنفسي أني أنا أيضاً كنت أنقر الأرض بحثاً عن الحب والحشرات الصغيرة. ثم فكّرت أيضاً ما الذي يجعله متحمساً هكذا ليساعدنا، لا أدري إن كنت أفكر بصوت عال أم أنه كان يسمع ما يدور في رأسي..... قال:

- لعلّك تتساءل عمّا يدعوني لمساعدة ساحر ساذج مثل حميد وديك متذاكٍ مثلك.

- في الحقيقة نعم. بغض النظر عمّا قلته بشأني.

- تعال نجلس في الظل حتى يأتي حميد وأخبرني. هل أخوك البدين ساحر؟

- ماذا؟!؟!؟...... ما الذي دعاك لمثل هذا التفكير؟!..... لا أخي ليس ساحراً.

- لكنك بالتأكيد مسحور. أنا أعرف هذا. هرمونات الدجاج ليست هي أساس المشكلة.

- هل حقاً ما تقول يا أرمد؟!..... وأنت؟!. لا تقل لي أيضاً أنّك لست حماراً..... وأنك....

- بالضبط..... أنا لست حماراً، أنا مثلك. إنسان عادي. كانت لي حياة وآمال وأمنيات. كلها ضاعت الآن.

- ومسحور على شكل حمار؟!.

- نعم. ومن سحرني كان يتعامل مع الحمير فصيرني حماراً.

- يا إلهي. يبدو لي فعلاً أن أخي ساحر. أخي يحب مصارعة الديكة فصيّرني ديكاً. سحرني ليستأثر بعائشة ويستغلني في المصارعة. كم كنت رخيصاً عنده. ليتني لم أعرف. كنت أصدق أن الأمر يتعلق بهرمونات الدجاج فقط، ما أغباني!!! وكيف لم أفطن له وهو يدفعني للقيام بأعمال ساذجة مضحكة ليشفيني كما كان يقول!!!!.

-كنت متأكداً من ذلك أيها الديك. لكن دعني أقول لك شيئاً. أخوك وحميد ومعلمه الذي سحرني ليسوا سوى أدوات يتلاعب بها ذلك الشيطان اللعين. ربما حانت فرصتي الثمينة لأنتقم منه، كنت أعرف أنها ستأتي، وكنت أنتظرها بفارغ الصبر.

ذكرت الهرمونات ونظرية العالم الياباني، ليس الأمر بعيداً عن الصحة أيضاً أيها الديك. ذلك الشيطان يستطيع أن يجري فينا مجرى الدم وأن يسكب في دمنا ما يشاء.

-لقد أخبرني حميد بقصته معك بعد موت أبيه يا أرمد، لكنه يبدو هو نفسه لا يعرف أنك مسحور.

-حميد مسكين وساذج. قبل ذلك كانت لي قصّة طويلة أيها الديك...... آهـ...لقد قلّبت علي-المواجع والذكريات....

انته فين والحب فين

ظالمه ليه دايماً معاك

دا انته لو حبيت يومين

كان هواك خلّاك ملاك

- وأيضاً تغنّي يا أرمد... ياسلام......؟!.

- تلك الأغنية كانت أول ما سمعته من فم قطعة السكر، هكذا سميتها بعد ذلك "قطعة سكر"...... وهي أحلى بكثير من كل سكّر الدنيا.

- قطعة السكّر؟!...... هل كنت تحب يا أرمد؟!. الله.... كم أحب قصص العشاق، أكمل أرجوك.

- حدث هذا قبل سنتين. ذات يوم كنت في المكتبة أبحث عن كتاب في علوم الحاسوب. كنت أول زبون. اتجهت للرف المخصص لذلك النوع من الكتب، كنت أتأملها بهدوء، ويبدو أنها دخلت بعدي واعتقدت أن المكان خال. من الجانب الآخر من الرف الذي أقف أمامه جاءني أعذب صوت سمعته في حياتي...

انته فين والحب فين.

ظالمه ليه دايماً معاك.

كانت تغني بنشوة هامسة، وتعزف اللحن بطقطقة لسانها،تعمدت أن أبقى هادئاً لكي لا أزعجها وأظل أستمتع بالصوت. وغنّت قطعة السكر، وأعادت

المقطع وهي تأخذ الكتب وتعيدها للرف، وأنا أكاد لا أتنفس. وفجأة سحبت الكتاب المقابل للكتاب الذي كنت قد سحبته أنا من جهتي.وتلاقت عينانا من بين الكتب، وتجمد الصوت في فمها، واتسعت عينها من المفاجأة وراء نظارتها الدائرية ذات الإطار الارجواني. تواصلت عينانا لثانيتين أو ثلاث ثم أعادت الكتاب لتسد ما بيني وبينها. نكست رأسي لأسفل وأنا أشعر بحرج ، خشيت أن تعتقد أني كنت أتلصص عليها.

أحسست بها تنسحب باتجاه الممر بين الأرفف، ألقيت نظرة بحذر على الممر. رأيتها تمشي باتجاه الباب وتنظر للوراء وكأنها هاربة،ولمّا التفتت كانت نظرتها تقول بفظاظة "تأدب يا هذا". وددت حينها أن أصرخ بها "ماذا فعلت أنا؟.....أنا كنت هنا قبلكِ".

مع خروجي من المكتبة كنت أحمل معي إحساس السعادة، وهذا أمر استغربت منه كثيراً، فأنا عادةً شديد الخجل وأحس بحرج شديد من هذه المواقف، ولم يخطر على بالي تفسير محدد سوى أن صوتها وجمالها غمراني بهذا الإحساس.

مضت بضعة أيام وذكرى تلك الثواني القليلة في المكتبة مازالت بقلبي لذيذة وبرائحة الورد وتدفعني للتبسم. لم أعلم أني على موعد آخر معها. بعد الظهر جاءت أمي تطلب مني أخذ أختي الصغيرة لموعد طبيب الأسنان، وهناك كانت المفاجأة. أول دخولي غرفة الطبيب كان أول ما وقع عليه بصري عينها. ذات العين التي رأيتها من وراء الرف، محاطة بذات الإطار الارجواني. كانت ترتدي الكمامة الطبية وكنت قادراً على سماع صوت الهواء الخارج

من أنفها وهو يصطدم بالكمامة. هي لم تتكلم على الإطلاق، وتمنيت لو أني سمعت صوتها العذب، كانت مساعدتها تقوم بكل الكلام نيابة عنها.لكن دار بين عيوننا وبنظرات خاطفة الحوار التالي:

- أنت الذي كنت تتلصص عليّ في المكتبة. شابّ متذاكٍ وقليل الأدب.

- صدقيني أنا لم أفعل هذا عن قصد وليس هذا من أدبي. أنا كنت واقفاً بهدوء وسحرني صوتك.

- ولماذا إذن كنت تنظر لي وأنا أغادر؟

- لأني ...... لأني.....

- لأنك ماذا؟!؟!. لأنك كنت تتلصص. جيّد أنك أتيت لتعرف أني طبيبة محترمة ولست ممن تبحث عنهن في الأسواق.

مع تلك الجملة الأخيرة التي قالتها عيناها أطرقت للأرض ولم أرفع عيني بعينها حتى انتهت من علاج سنّ أختي ثم جلست أمام حاسوبها لتدخل البيانات. كان المفترض بها أن تشرح لي بعدها عن حالة أختي، وكنت أنا أتوجس من اللحظة التي ستزيح فيها الكمامة عن وجهها لتتكلم، وحين أزاحتها فتحت عيني على آخرهما وقلت في نفسي: "سبحان الله". سبحان من خلق فأبدع، كل شيء فيها يقول أنا أجمل، وهي بكلها تقول أنا الأجمل.تكلمت بصوت متردد في البداية ثم استعادت شجاعتها

- أخي..... هذه أختك؟

- نعم.

- مافعلته للتو أني أزلت الحشوة المؤقتة التي وضعتها قبل ذلك واستبدلتها

بحشوة دائمة، بقية الأسنان تبدو جيدة لكن لا تهملوها بحجة أنها أسنان لبنية، فوضعها سيؤثر على أسنانها الدائمة بعد ذلك.

ثم أقفلت الملف الذي أمامها وقامت من أمامي وكأنها تقول "من غير مطرود". قمت وأمسكت بيد أختي وخرجت، كنت أحس أنها هزمتني مرتين، الأولى في حوار العيون والثانية عندما كلمتني بكل شجاعة ثم قامت من أمامي وكأني شيء أو لا شيء. ولست أنا من يرضى بالهزيمة بهذه السهولة. كانت أختي تريد التوجه لباب الخروج وأنا أجرها صوب مكتب الاستقبال. توجهت للموظف أطلب منه موعداً لعلاج أسناني، فاجأني بقوله:

- أقرب موعد بعد ثلاثة أشهر.

- ماذا!!!..... مشكلتي ملحة ولا أتحمل حتى ثلاثة أيام...... أرجوك.

-ليس بيدي حيلة صدقني، كلهم يريدون الدكتورة جواهر. اسمع، عندي لك حل، ما رأيك أن أحولك لعيادة أخرى؟.

- لا لا.....أنا أيضاً أريد الدكتورة جواهر، احجز لي موعداً عندها حتى لو بعد ثلاثة أشهر، أمري لله. منذ متى هذه الدكتورة تعمل في هذه العيادة؟

- أنا أعمل هنا منذ خمس سنوات، وهي كانت هنا قبلي لكنني لست أعلم بكم من السنوات.

- هل هي متزوجة؟

- عجيب أمرك يا أخي، ماذا يهمك من المرأة أهي متزوجة أم لا؟!؟!. وهل أنا أبوها أو أمها؟!! اذهب واسألها هي. خذ هذا موعدك بعد ثلاثة أشهر. الحمد لله على نعمة العقل!!!

أخذت الورقة منه وخرجت غير عابئ بما قاله، في الحقيقة لم أدرِ أنا نفسي حينها كيف سألته ذلك السؤال ولماذا. يبدو أني كنت تحت تأثير جمالها.

عدت للبيت. عندما دخلنا أنا وأختي سألتني أمي مبتسمة....

- أرجو أنكما وجدتما الدكتورة جواهر؟!.

- نعم يا أمي، يبدو أنها مشهورة والكل يريدها!

- لم أرَ يداً خفيفة كيدها !.....خصوصاً على الأطفال، لكنها مسكينة، مادام ذلك البخيل بائع الحمير حياً فلن يعتقها.

- ماذا تعنين يا أمي؟!

- أبوها يرفض تزويجها طمعاً في راتبها، هو بخيل إلى أقصى ما يمكنك أن تتصور، تقدم لخطبتها كثيرون ودوماً يعيبهم بسبب وبدون سبب، فقط لتبقى تسلمه راتبها أول كل شهر. آخر من خطبها كان ابن عمَها، ولمّا لم يستطع أن يعيبه في شيء اشترط عليها أن تأخذ سلفة كبيرة من البنك وتسلّمه المبلغ ليوافق على زواجها. ووافقت المسكينة أملاً منها أن تتزوج، وأخذت أقصى ما يسمح به البنك من قرض وسلمته له. لكن توقع ما فعل بعدها. لقد افتعل مشكلة مع أخيه والد الخاطب، وخاب أمل المسكينة. وهاهي لا تزال بدون زواج. لابد أنها بلغت الخامسة والثلاثين أو أكثر الآن. اللهم يسّر لها.

- ومن هو أبوها هذا؟!.....قلتِ بائع حمير؟

- هو من عائلة محترمة لكن بخله جعله يفعل أي شيء من أجل المال، كان فيما مضى يتصيّد الحمير الشاردة ويبيعها أو يؤجرها، ألا تذكر عندما كنت صغيراً كان أبوك يأخذك أنت وإخوتك لتركبوا الحمير عند رجل يقال

له مسعود الحمَار؟

-آهـ...... مسعود الحمّار، قولي لي مسعود الحمّار من قبل لأعرفه. وهذه الجميلة الرقيقة تخرج من صلب مسعود الحمّار!!!!!. أذكره جيداً. فكّه الأسفل مستدير قليلاً نحو اليمين وبه حول مزدوج. مثله لا ينسى أبداً. سبحان الله يخرج الحي من الميّت.

تركت أمي وأختي وذهبت لغرفتي وأنا أحدث نفسي "أبي متشدد في هذه الأمور، سيقول لي مستهجناً: (تريد أن تتزوج بنت الحمّار)...... يا لهف قلبي عليها بنت الحمّار.

لكن قبل كل شيء كيف ستتعامل مع ذلك الغول مزدوج الحول الذي تخلّص من كثيرين قبلك. ماذا ستفعل به!؟!؟. لقد ترك صنعة الحمير وإلا ربما رشوته ببعضها. ها ها.....بماذا ستفكر جواهر الآن لو عرفت أني أعرف قصة أبيها والحمير؟!. هل ستحتفظ بنظرة الدكتورة المحترمة التي كانت تكويني بها في العيادة.؟!. لكن جمال عينيها كان قد كوى قلبي بأشد من النار، وكنت مستعداً للقبول بأبيها وحميره وحَوَله وأحظى بها. من كثرة ما فكرت ليلتها في كيفية التوصل لها ولفت نظرها خطرت لي أفكار كثيرة، أكثرها جنوناً كانت أن أبحث عن حمار وأركبه وأتجول به بالقرب من العيادة. لابد أنها ستلاحظني من النافذة. لكني استبعدت هذه الفكرة بسبب زحام السيارات الذي يحصل بالقرب من العيادة. ثم خطرت لي فكرة أخرى، هي أن أحاول التواصل مع أبيها الأحول بطريقة ما، ولا شك أن ذلك سيقود في النهاية للتواصل معها.

يوم الجمعة التالي خرجت من الصباح في رحلة استكشافية، قصدت عزبة

أبيها التي كان أبي يأخذنا لها ونحن صغار. وجدت العزبة مهجورة ولم يتبق منها غير السياج الخارجي المعتمد على أعمدة خشبية، ومن العجيب أن اللوح الذي كتب عليه مسعود أسعار الحمير مازال مثبتاً على إحدى تلك الدعائم الخشبية.....

أجرة حمار نصف ساعة- 5 دراهم

ساعة- 10 دراهم

سعر الحمار الكبير مؤدب-200 درهم

الجحش الصغير- 100 درهم

تأديب حمار-100 درهم

لسنا مسؤولين عن أي إصابات ولا ضمانات للحمير

والعجيب أيضاً أن مسعود ترك السياج والأعمدة ولم يأخذها، وعلى ما وصفت أمي من بخله فلايجدر به ترك شيء. وأنا أتأمل المكان إذا بسيارة متجهة نحوي، توقفت وأطل منها أحد العمال الآسيويين الذين يعملون في العزب القريبة يسأل إن كنت موظفاً في البلدية، أجبته بالنفي ثم سألته:

- لماذا اعتقدت أني من البلدية؟

- لقد جاؤوا لهذه العزبة عدة مرات يطالبون بإزالتها ومسعود يرفض، إنه يدعي ملكية الأرض، ولهذا هو مصر على عدم إزالة السياج كما ترى.

- أين هو مسعود الآن؟

- مسعود منذ أن ترك العزبة لديه دكان في سوق الحرفيين يبيع فيه الأشياء القديمة والأعشاب الطبية.

وهكذا عرفت أين هو مآل مسعود. في سوق الحرفيين، يبيع الأعشاب الطبية. ليس بعيداً عن مهنة جواهر، هو أيضاً يعمل في الطب. تلك كانت نقطة مشجعة، لم يعد أبوها "راعي الحمير"، فقد أصبح عشّاب. توجهت لسوق الحرفيين، لكنه كان مغلقاً. تذكرت أنه يوم جمعة وقررت العودة في الغد. بقيت روحي هائمة بطيف تلك السكّرة، وما إن أطل الصباح حتى اتجهت لسوق الحرفيين، بالضبط لم أكن أعرف ماذا سأفعل فالحب يسلب العقل. وصلت السوق وتمعنت في الشخوص الجالسة أمام الدكاكين حتى وقعت عيني على مسعود الحمّار أو العشّاب حالياً. كان دكانه ثاني دكان، وكان يجلس أمامه على كرسي متهالك يبدو أنه صنع من بقايا خشب المناجر القريبة. في الحقيقة كان هو وكرسيه يبدوان كأنهما من بقايا عصر ما قبل التاريخ، ربما من عصر القشريات.

كانت أمامه أكياس كبيرة مصفوفة تحتوي على أدوية شعبية ، وعلى الباب معلقة مفارش ملونة من سعف النخيل، ومجزّات من النوع القديم تستخدم لجزّ البرسيم. المثير في الأمر أن ملامحه الحادة القوية التي كنت أحملها عنه منذ الطفولة مازالت كما هي. فكّرت في خطّة بسيطة، نويت التظاهر بأني أريد شراء عشبة للإمساك، ثم سأسلم عليه بحرارة شديدة عندما أتذكر أني كنت أركب عنده الحمير. نزلت ومشيت نحو دكانه، عند اقترابي لمحت شاباً يجلس بأقصى داخل الدكان هيئ لي أنه ابنه، تظاهرت بالتلقائية والعفوية، وقفت عند أول دكان أتأمل المعروضات ثم انتقلت لهدفي الرئيسي. وأنا أقترب من بضاعته كان ينظر لي بطرف عينه، توجهت له بالسؤال:

- أيّ هذه الأعشاب لعلاج الإمساك يا عمّ؟

رفع رأسه. لايمكن أن تعرف أين ينظر بسبب حوله المزدوج. حرّك فكّه للجهة اليمنى ثم أجابني:

- هذا...... هذا هو الحلول، والأفضل أن تأخذ معه من هذا ليكون أثره لطيفاً على أمعائك.

وهنا تظاهرت أني تذكرته:

- عمّي مسعود!!!...... ألا تذكرني!!!..... كنّا نأتي عندك للعزبة منذ سنين. أنا ناصر إبن خليفة. بيتنا في الحارة الغربية ، ألا تذكرني؟

- تذكرتك. نعم أنت ناصر أكبر أبناء خليفة. مممممم... قل لي هل ذهب أبوك لأداء فريضة الحج؟

- نعم يا عمّي ، لقد حجّ قبل عامين. لماذا تسأل؟

-قل له أن حجّه غير مقبول. كيف يحجّ وفي ذمته دين لي؟!؟!. لي عليه خمسة عشر درهماً، استأجر مني حماراً ولم يدفع لي. إن كان يريد أن يبرّ حجّه فليؤديها.

لم أكن واثقاً من جديّته، حسبته يمزح معي ليتودد لي، لكنه استدرك بعد ثوانٍ قليلة:

- إن كان هو أبوك فيمكنك أنت أن تدفع عنه، أليس كذلك؟.

وحتى أخرجت من جيبي المبلغ وقبضه في يده كان عندي شك أنه سيعيده لي وهو يضحك ويكون الأمر مزحة، لكنه أخذ المبلغ ووضعه في جيبه ثم أخذ ينصحني بأنواع من الأعشاب. أنا كنت أسبح في بحر من العجب، كيف

يتذكر ذلك المبلغ ويطالب به بعد تلك السنين. وكيف لتلك السكّرة أن تعيش مع أبٍ كهذا. هذا ليس أباً. إنه ابتلاء.

صار في نظري بغيضاً ذلك العجوز، وتخيلت كيف تعيش معه جواهر. تخيلتها عيشة ضنكى لا تستحقها تلك التي تغرد العصافير لرؤيتها. تمنيتها عندي وأضعها في مهد وأهزّ بها علّها ترتاح من معاملة هذا المخلوق المتبقي من عصر القشريات المنقرضة. في المساء كاد الشوق يقتلني، وكلما فترت عني عبرة خنقتني عبرة بعدها، عرفت رجفة الحب وشرود العاشق الطويل ولم أصدق طلوع الصباح. عندما نظرت لنفسي في المرآة رأيت شخصاً منهكاً. وتلك كانت ليلة واحدة فقط من ليالي الشوق. كنت أبحث عن حيلة لأراها، لعلّ الحياة تدب في شراييني. وبعد تفكير اهتديت لحيلة. حيلة ساذجة ومكشوفة، لكني لم أكن أبالي. توجهت للمركز الصحي أنوي الجلوس بمقابل غرفتها لأحظى بنظرة كلما خرج مريض ودخل آخر. كانت الساعة التاسعة، وتوقعت أن أجد مقعداً خالياً بسهولة أمام عيادتها، لكني فوجئت بامتلاء صف الكراسي عبر كل الممر بالمراجعين. انتظرت أن يشغر أحد الكراسي المقابلة لباب سكّرتي، وطال انتظاري، ثم حانت لي فرصة حين قام طفل صغير يجلس بجوار أبيه بمقابل الباب ليلتقط لعبته التي سقطت منه، ولم أضع الفرصة. أسرعت وجلست مكانه بجوار أبيه، رمقني الأب بنظرة استهجان لم تكن تهمني حينها، وجاء الطفل الصغير ووقف بين رجلي كأنه يطلب مني أن أترك مكانه لكني لم أنظر له وركزّت نظري على باب العيادة. انتظرت بلهفة شديدة متى يفتح الباب ليخرج المريض الذي بالداخل ويشرق عليّ نورها. ودار قفل

الباب أخيرا. اشرأبت روحي قبل بصري لأنظر لها، أحسست وكأن صدري صار فارغاً. فتح الباب، ويا لحسد ذلك المريض، ففوق أنه كان بديناً لدرجة يسد معها أوسع الأبواب فقد كان مصراً على إغلاق الباب وراءه وبإحكام.

الآن أنتظر المريض الذي سيدخل، تفرست في الجالسين والغيرة تملأني. تخيلتهم يحدثونها وهي تلمس وجوههم وينظرون لها مستلقين. ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أندفع نحو الباب وأفتحه، والتحم بصري بوجهها المندهش من اندفاعي للداخل. أحسست كأني دخلت وسط بيت من بيوت الأسكيمو. تجمدت أمامها، فإذا بها تبتسم، وإذا بي أعود للحياة بعد سبات لثوان.

تناولت شيئاً كان بجانبها ومدت لي يدها به وهي تقول: «توقعتك أن ترجع بالأمس. تأخرت كثيراً». مددت لها يدي وأخذت ماكانت تناولني إياه وأنا في سكرة من الرضا والنشوة. دخل ورائي مريض وأشارت لي مبتسمة أنها تريد إغلاق الباب، خرجت وأنا أضم يدي بشدة على ما أعطتني إياه.لم يكن يخطر ببالي غير أنه رسالة حب أو ربما رقم هاتفها لأتصل بها. وصلت سيارتي وأنا مازلت أترنح من السكرة. فتحت يدي...... مسكين هو العاشق، هو أعمى أمام من يعشق.لم يكن ما أعطتني إياه رسالة حب، أو رقم هاتف. لقد كان بطاقة أختي الطبية التي يبدو أنها وقعت مني بالأمس.

الإحباط الشديد سبب لي غضباً شديداً، ولم يكن هناك من ألقي عليه اللوم سوى أبيها. بشكل لا شعوري كنت أسوق سيارتي نحو سوق الحرفيين. كنتُ أتخيل نفسي أصعد بسيارتي على الرصيف المقابل لدكانه ثم أجعل مؤخرة السيارة مواجهة لباب الدكان حيث يجلس، ثم أضغط على دوّاسة

البنزين حتى آخرها فيمتلئ هو ودكانه وأعشابه بالتراب والغبار. وصلت لمواقف السيارات أمام الدكان، وبعد محاولتين استطعت في الثالثة أن أصعد الرصيف المرتفع، استدرت بالسيارة لأوجه مؤخرتها لدكانه، ثم رجعت للوراء لأقترب قدر المستطاع من بابه. كنت على وشك إطلاق العنفوان لكامل قوة السيارة لتدكه هو وأعشابه. لكن في آخر لحظة فاجأني شيء. عند نظري في المرآة العاكسة فوجئت بذلك القشري يحمله إبنه ورجل آخر وهم يجرون به نحو سيارتي وإذا بهم يفتحون الباب الخلفي ويلقونه لي على المقعد. كنت في ذهول وأنا أنظر له ممدداً بدون أدنى حركة، جاء ابنه وركب بجانبي وهو يقول:

- بسرعة للمستشفى.

ولم يكن بيدي سوى التوجه بذلك القشري للمستشفى. لابد أن غضبي عليه وصله قبلي وأطاح به من على كرسيّة. قبلاً منيت نفسي أن يموت قبل أن نصل للمستشفى ونتخلص منه، ثم فكرت أنه من الأفضل أن يبقى حيّاً وتأتي جواهر وتراني بقربه وتعرف أني أنا من أنقذه. خلال الطريق لاحظت أن ردود فعل الإبن ليست طبيعية بالكامل، وكأنه يعاني إعاقة عقلية بسيطة، لكني لم أستغرب أن تكون فيه عقد الدنيا كلها إن كان أبوه من فصيلة القشريات. لا أدري كيف تلبسني شعور الخوف والحزن على ذلك العجوز، كنت متلهفاً لإنقاذه، وكلما التفت لأطمئن عليه لم أجد فيه إشارات للحياة سوى فكّه الذي كان يتحرك بحركة منتظمة كدقات الساعة. وصلنا لطوارئ المستشفى ونزلت بسرعة أبحث عن كرسي متحرك لأحمله عليه، عدت ومعي أحد الممرضين ، توقعت أن أجد ابنه مستعداً لمساعدتنا على إنزاله من السيارة لكنه لم يكن

كذلك، تأكدت حينها أنه ليس طبيعياً.

عندما أنزلناه للداخل طلب مني الممرض بطاقته الصحيّة أو بطاقة هويته، مددت يدي في جيبه علّي أجد محفظته. أخرجت من جيبه صرّة مربوطة بخرقة قديمة قذرة. لو كنت في ظرف آخر لتقززت من لمسها. فككت الصرّة الأولى فإذا بداخلها صرّة أخرى، ثمّ أخرى، ثم وجدت أوراقاً نقدية ملفوفة بعناية كبيرة لكني لم أجد شيئاً آخر. لمعت في رأسي فكرة عبقرية عزف لها قلبي لحناً احتفالياً. أسرعت لابنه الذي مازال بالسيارة. سألته عن هويّة أبيه وأنا أتمنّى أن يقول لي: "لا أعرف"، وحين قال: "لا أعرف" ابتسم قلبي وقفز ودار دورتين في الهواء قبل أن يعود لمكانه. حينها طلبت منه رقم هاتف جواهر فأخرج لي ورقة مكتوباً عليها رقم هاتفها. كانت ورقة قديمة ومهترئة من طول بقائها في جيبه. قفز قلبي مجدداً ، طار بجناحين وحطّ على الورقة يقرأ الرقم. رأيته ينتقل من رقم لآخر. يقبل الأرقام ويتمرغ بينها بجنون غريب. كان عليّ أن أزجره ليعود لصدري وأستعيد وعيي. حتى رقم هاتفها له نغمة شجية على أزرار الهاتف، أخذت بضعة أنفاس عميقة قبل أن أضغط على زر الإرسال. ثم ضغطت......وأخذ قلبي يخفق خفقاً عميقاً متتالياً. ردّت بعد ثلاث رنات:

- ألو......

- دكتورة جواهر؟.

- نعم أنا هي، تفضل.

- دكتورة...... عمي مسعود أغمي عليه. نحن في الطوارئ وأريد بطاقته الصحية.

- من أنت؟...... ومن هو عمّك مسعود؟

- أنا ناصر . كنت عندكِ صباح اليوم...... ألا تذكرين؟ أعطيتني بطاقة أختي.

- كيف تتجرأ وتتصل على هاتفي؟!. ومن أين عرفت رقم الهاتف؟!. ألا تستحي؟؟؟. اليوم سأقدم شكوى ضدك عند الشرطة لتتعلم أنت وأمثالك أن بنات الناس ليست لعبة. لكن قبل ذلك قل لي من هو عمّك مسعود؟

- عمّي مسعود هو أبوك. لقد وقع في الدكان وجئت به للطوارئ، اسمعي يا جواهر. لقد أخذت رقم الهاتف من أخيك لأنهم يريدون بطاقته الصحية. ثم اسمعي مرّة أخرى، أنت تعتقدين أني أغازلكِ..... أليس كذلك؟؟؟. والحقيقة هي أن كل لقاءاتنا كانت صدفة. أنا أعترف أنك أجمل ما رأيت، وأني أفكر فيك كل ثانية، وأنك قد سلبتي عقلي وقلبي. لكنّي لم أغازلكِ.

- هل تعني ما تقول؟!؟!. في الحقيقة...... منظرك لا يوحي أنك طائش، لكنك أخفتني في المكتبة، وأخفتني اليوم عندما دخلت العيادة . بعد ذلك تذكرت أن بطاقة أختك وقعت منك. ماذا كنت تقول عن بطاقة أبي الصحية؟؟

- إنهم يريدونها في الطوارئ بسرعة ، هل ستحضرينها؟.

- أنت هناك؟

- نعم.

- إني أشعر بالخجل منك الآن.

- أنا أيضاً أشعر بالخجل منكِ. يخجلني جمال عينيك.

وتلك كانت حقيقة غريبة، لقد أحسست بخجل شديد منها بعد أن كلمتها في الهاتف، عدت للسيارة حيث مازال أخوها ينتظر، بادرني بالسؤال عن أبيه

، وقبل أن أجيبه بادرته أعانقه وأقبل رأسه من شدة فرحتي. ولولا خشيت أن يتضايق مني لعدت لأضمه وأقبل رأسه. فيه شيء من ملامح جواهر ورائحتها. ذهبت به للبقالة القريبة واشتريت له العصير والحلويات، حتى ألعاب الأطفال عرضتها عليه لكنه رفضها.

عندما عدنا للمستشفى أشار لسيّارة واقفة وقال إنها سيارة جواهر، لم أجرؤ حتى على الوقوف بجانبها، ولم أجرؤ على النزول والذهاب لقسم الطوارئ. تلبستني حالة من الخجل الطاغي، وصار وجهي يتفصد عرقاً. رن هاتفي. كانت هي:

-ألو......ألو.....

كنت أسمعها تتنفس بقرب الهاتف دون أن تتكلم......ثم تكلمت

- أين أنت. في قسم الطوارئ؟!

- لا لقد خرجنا .ذهبنا للبقالة القريبة وقد عدنا الآن.

- مسكين أخي محمد، أرجوك ترفق به فهو ليس طبيعياً.

- بالطبع ..... لقد فهمت الأمر، لا تعلمين كيف أحببته من أول نظرة.

- من أول نظرة؟!......لماذا؟

- لأن فيه ملامح منكِ.

سكتت وسكتّ أنا أيضاً. كنت أنتظر ردّة فعلها بتوتر. قالت:

-لقد كنت أخشى الدخول لقسم الطوارئ، حسبتك هناك، سأذهب الآن لرؤية أبي، أرجوك لا تأتي حتى أخرج. وإياك أن تغضب محمداً.

ولو طلبت مني البقاء ليالي عدة لبقيت لكنها اتصلت بعد ساعة:

- أهلاً...... كيف هو محمد؟

- بخير...... أخبريني عن عمّي مسعود، هل هو بخير؟

- يقول الطبيب انه أصيب بجلطة ، مازال في غيبوبة وأدخلوه غرفة العناية المركزة. لقد أتعبتك معي اليوم، وأسأت الظن فيك قبل ذلك.

- لا تقولي ذلك يا حبيبتي، لو قطعت نفسي لكِ قطعة قطعة لما اشتكى مني بدني ولا أحسست بالألم. عيناك غسلتاني بنور المحبة وصرت......

-أراك أخذت راحتك كثيراً وصرت تتغزل، وكأنك لا تعرف أن أبي يرقد في العناية، وكأن أخي ليس بجانبك.

وكأنها أيقظتني من حلم جميل، بالفعل لم أشعر بنفسي وأنا أقول لها ذلك الكلام، ولم أشعر بوجود أخيها الذي كنت أفتح له كيس البطاطس. مرّة أخرى أقول العاشق أعمى وبلا عقل. سكتّ أنا عن الكلام، واستأنفت هي:

- أريد أن تنزل أخي أمام بوابة الطوارئ وتذهب.

- ألن أراكِ قبل أن أذهب.؟؟؟

- لا، لن تراني، ومن أنت لتراني؟!؟!

- سنّي تؤلمني وسآتي غداً لعيادة الأسنان.

- عليك أن تحجز موعداً. جدول العيادة محجوز لثلاثة أشهر.

- سآتي لزيارة عمّي مسعود، وسأجلس أمام غرفة العناية المركزة حتى أراك.

مع إحساسي بالإحباط لعدم رؤيتها إلا أن إحساس السعادة كان يتسلل لصدري. خالجني شعور أنها تتمنع وتتدلل فقط، على الأقل نمت ليلتي تلك نوماً مرضياً وأديت عملي حتى الظهر وبعدها حان وقت السكّر. انطلقت للمستشفى ، وقبل أن أنزل نظرت لنفسي في المرآة محاولاً أن أتعلم إظهار

ملامح الحزن على عمّي القشريّ. دخلت المستشفى واتجهت لغرفة العناية المركزة وأنا منكس الرأس ويغمرني شعور بالحزن. عند قسم العناية المركزة واجهني رجل الأمن ليسألني عن اسم المريض الذي جئت من أجله:

-أريد رؤية عمّي مسعود.

-اعطني اسمه كاملا. حتى فجر هذا اليوم كان لدينا اثنان باسم مسعود، وقد مات احدهما بعد الفجر.

أعرف أنه لا يصح منّي ذلك، لكن ما بيدي حيلة، تمنيت أنه هو الذي ودّع الدنيا. على الأقل سأرتاح من أكبر عقبة بيني وبين سكّرتي. لكن خاب ظني، فقبل أن أتذوق طعم ذلك الحلم خرجت من الداخل امرأتان، التي في الأمام كبيرة في السنّ، والتي وراءها هي السكّرة، في البداية خجلت وأشحت بوجهي بعيداً، ثم تذكرت نيران شوقي فتشجعت. تقدمت أمام المرأتين. لمحتني السكّرة فتعمدت أن تختفي وراء أمها، وعندما اقتربتا منّي قلت لأمها:

- خالتي أم محمد..... خالتي أم محمد...... السلام عليكم.

وهويت على رأسها أقبله ، ثلاث مرّات. وكأني لمحت السكّرة تضحك وهي تدير وجهها بعيداً عنّي.

- خالتي أم محمد، كيف هو عمّي مسعود، أخبريني عنه، لم أنم البارحة من القلق عليه.

- الحمد لله يا ابني، لكنه مازال في غيبوبة، اسمح لي يا ابني لم أعرفك، ابن من أنت؟

-أنا ابنك ناصر، كيف نسيتيني يا خالتي، ناصر ابن خليفة، أمي مريم بنت

أحمد، نسكن في الحارة الغربية.

-آهـ..... سامحني يا ولدي، قلّ تزاورنا أنا وأمك، كيف هي أمك واخوتك وأبوك. هل مازالت أمك تعاني من آلام الظهر.

- نعم يا خالتي مازالت تعاني، أبي يفكر في أخذها لبلاد أخرى للعلاج.

كنت وأنا أكلم أمها أحاول الحركة قليلاً نحو اليمين أو اليسار لأستطيع رؤيتها وهي مختفية وراءها. كلما تحركت لأواجهها تحركت بدورها لتختفي وراء أمها. واستسلمت في نهاية الأمر عندما لم يتبق عندي شيء لأقوله. وذهبتا، ووقفت غارقاً بشوقي. ودون شعور، وكأنني مخمور وجدت نفسي أمام القشري أقبله وأبكي وممرضتان تقفان بجانبي تواسياني. كيف دخلت لا أدري، لعل قلبي جاء بي يبحث عن رائحتها في أبيها. عندما انتبهت كان وجهي عند رأسه، فشممت رائحة شعره العطنة، لا أظنه استحمّ منذ أشهر، لكن لا يهم، رائحته وجدتها أحلى من المسك لأنه أبوها .بعد قليل جاءتني إحدى الممرضات وفي يدها كيس، قالت إنه متعلقات القشري وطلبت مني التوقيع على استلامها. قلت في نفسي جاء الفرج وطبعت قبلة مستعجلة على جبين مسعود، أخذت متعلقاته وخرجت ومعي سبب لأتصل بها. جلست في السيارة وأخذت عدّة أنفاس. عزفت رقمها..... وجاء صوتها الطاهر:

- ألو.......

وددت لو أكلت تلك الكلمة من فمها

- جواهر اسمعيني قبل أن تغضبي.

- أنا لست غاضبة، تكلم ماذا تريد، لكن ليكن هذا آخر اتصال.

- كنت عند عمّي مسعود وقد أعطوني متعلقاته، ثوب وصرّة وإزار وفردة نعال واحدة، والعصا بقيت بقرب سريره.

ثم ضاع الكلام مني فلم أستطع أن أنطق بشيء، ولمّا طال بي السكوت قالت:

- هذا فقط ما تريد قوله؟!!. كنت أنتظر أشياء أخرى حسبتها مهمّة.

- مثل ماذا؟!؟!....... أرجوكِ قولي.

- لا أدري...... يبدو أني كنت مخطئة.

- أنا فعلاً يا جواهر أريد قول أشياء كثيرة، لكني الآن فقط فقدت كل ذاكرتي. أصابني سحر ما. كلما رأيتك أو سمعتكِ يصيبني سحر، أفقد ذاكرتي وعقلي، أما قلبي فيصاب بحالة سكر شديدة.

- ناصر .... دعني أساعدك..... هل أنت معجب بي؟

لم أصدق أنها سألتني ذلك السؤال، وانهمر العرق يتقاطر من وجهي لفرط تأثري وصرت أحاول إخراج الكلمات فتعلق في حلقي. صبرت عليّ حتى استعدت بعض أنفاسي:

- جواهر...... جواهر...... ماذا تقولين؟!.... وعن أي إعجاب تتكلمين؟! أنا انغمست في حبك، وشربت منه، وملأت منه قلبي وجرى في شراييني. وهل يكفيك كل إعجاب المعجبين؟!. أنت فقط تعشقين للموت.

- ناصر.... اهدأ قليلاً...................... هل تحسّ أنك أهدأ الآن؟

- نعم، وتأخذني موجة صوتك إلى أعماق الهدوء.

- توقف عن غزلك لدقيقة أريد أن أقول شيئاً. هل تعرف كم فارق السنّ بيني وبينك؟!....... لقد سألت أمي اليوم عنك ، أنت حتى أصغر من أخي

محمد بسنة، فارق السنّ بيني وبينك هو عشرة أعوام......هل تعي ما أقول؟!.

- وماذا في ذلك يا جواهر؟!...... أنا لست صبياً أجري بحفاظتي.

- أعلم ذلك. كما أني أعلم أن الشباب في عمرك يحبون بسرعة وينسون بسرعة، وعندما أكون أنا في الخمسين ستكون أنت مازلت في عنفوان رجولتك. هل تفهم؟

- دعيني يا سكّرة أتخيل شكلكِ وأنت في الخمسين...... آهـ..... ما أجملكِ.... أنت نبيذ أحمر، لا تزيده السنون إلا حلاوة.

- لقد احترت معك. ماذا أقول لك وماذا أفعل معك؟!؟!؟

- أحبيني يجزيكِ الله الجنة.

- هاها.... هاها..... هاها...... أنت بليّة. هكذا ببساطة تطلب مني أن أحبك؟!

- أحبيني يا قطعة السكّر، يا أحلى من كل سكّر الدنيا.

- لماذا تسميني قطعة سكر؟!

- حبيبتي....

- لا تقل حبيبتي، أنا لست حبيبتك حتى الآن.

- كما تريدين.... يا عمري ويا روح روحي، سميتك سكراً لأنه منذ رأيتك صار كل الكون سكّراً. حتى دمعي عندما بكيتك البارحة، جرت دمعة لفمي فكان طعمها سكرياً.

- يا سلام..... كلّ هذا فيّ أنا؟!!!

- بل هذا أقل ما فيك يا أحلى من الورد. ليتني من أقلّ أشيائك التي تحملينها معك. أو ليتني نسمة هواء أتعطر من أنفاسك.

- توقف. حسناً سأفكر فيك الليلة، وسأرى هل أحبك أم لا. أنا لم أجرب

الحب، لكن ما أعرفه عنه أنه يعصف بالقلوب، وأنا قلبي رقيق لا يتحمل كثيراً.

- يا عمري، رياحي مستقرّة دوماً على شراع حبك، وقلبي لا يجدّف إلا في بحرك.

- لا تحاول التأثير علي. قلت لك سأفكر فيك وأخبرك غداً.

- أنا راضٍ بما ستحكمين عليّ، وليتك ترينني الآن، أنا أنحني لك يا أجمل ما خلق ربي. قولي لي يا عمري، حتى يصدر حكمكِ غداً، ماذا عن شرطك بأن هذا آخر اتصال.

- هل ترى أن نؤجل هذا الشرط حتى أفكر فيك؟

- نعم. قد تحتاجين لسؤالي عن شيء معين وأنتِ تفكرين، أليس كذلك؟!

- اممم... نعم.... سأسهر الليلة بطولها لأفكر، توقع اتصالي في أي وقت.

حين قالت كلمتها الأخيرة كدت أقذف بالهاتف عالياً في السماء احتفالاً ببوادر حبها. وهكذا اتصلت بها أنا أول الليل لأسألها إن كانت بدأت في التفكير، ثم اتصلت هي في وسط الليل لتخبرني أنها قطعت شوطاً في التفكير. ثم قررنا أن نفكر معاً حتى الصباح. كانت أحلى ليلة في العمر، هي قالت ذلك قبلي:

- هل تريد الصدق. الحبّ حلو جداً، لماذا يشتكي الناس منه.

- إنهم يتدلعون عليه فحسب.

- لقد طلعت الشمس، أسمع أمي في الخارج.كيف انقضى الليل بطوله هكذا دون أن أشعر؟!؟!. تقول أني أنا سحرتك، وما حصل هو العكس. لقد سحرتني فلم أعد أحس بالوقت.

- هل تنوين الذهاب للعمل اليوم؟

- لا. أخذت إجازة بسبب ظروف أبي، وها أنا أقضي الليل مع غزلك.

- مسكين عمي مسعود، هل قال الطبيب انه سيموت قريباً؟

- ناصر...... ماهذا؟. فأل الله ولا فألك. هل تتمنى الموت لأبي؟

- لا يا عمري. أنا مستعد أن أفديه بروحي لأجل خاطرك. بالمناسبة، هل تظنين أنه سيوافق على زواجنا؟

- ناصر حبـ.....

- هيا قوليها ولا تكسري بخاطري، قولي حبيبي يا حبّة القلب.

- كانت مجرد غلطة، وهل قلت لك أني أحببتك؟!. المهم أني أريد أن أخبرك شيئاً عن أبي، وأرجو أن لا تخبر أحداً.

- هيّا قولي يا روحي.

- أبي به جنّ........نعم جنّ.

- جنّ!!!!..... ماذا تقولين يادكتورة جواهر!!!!...... أنتِ تصدقين مثل هذا الكلام!!!

- اخفض صوتك وأنت تتكلم ، لولا أني متأكدة ما قلت ذلك. هل تعرف أن كثيرين قبلك خطبوني من أبي، لكن كلّهم كان الجني يرفضهم. آخر من خطبني كان ابن عمّي عليّ، وبعد أن حاول أبي إقناعه لمدة طويلة رضي بشرط أن نشتري له ذهباً كثيراً وندفنه في مكان مهجور، ويومها أخذت سلفة من البنك لنشتري له الذهب. لكنه بعد ذلك سبب لنا مشكلة مع عمّي وانتهى الأمر .

- وهل تصدقين كل هذا يا حبيبتي؟!؟!؟

- قلت لك أني لم أصبح حبيبتك بعد. أنت لا تعرف هذا الجنيّ.

وشرعت جواهر تعدد تصرفات جنيّ أبيها الغريبة. وكيف أن كثيراً ممن خطبوها أصيبوا أو جنّوا. يومها لم أكن أعلم ولم أكن لأصدق أن ذلك القشري أباها ساحر من عبيد الشيطان، وأن الشيطان كان فعلاً يحول دون زواج جواهر لتبقى ملكاً خالصاً لأبيها. وبالمناسبة هو ذاته الذي علّم حميد السحر وأورثه العبودية لذات الشيطان.

القشري تعافى من الجلطة التي أصابته خلال يومين فقط، وكما أخبرتني جواهر فقد كان ذلك مفاجأة للأطباء، لكنه لم يكن مفاجأة لي. مثله لا يموت بسهولة، ولاتقتله إلا داهية كبيرة، أما الجلطات والأزمات القلبية فلا تعني له شيئاً.

في إحدى الليالي وأثناء تفكيري بوسيلة أو طعم لإقناع القشري بالموافقة على زواجي تخلقت في رأسي فكرة مجنونة جعلتني أفتح عيني على آخرهما. لنا جارة عجوز اسمها حمامة، أصابها الخرف منذ سنين عديدة وأقعدتها الجلطات الدماغية المتكررة ولم تعد حتى قادرة على الكلام، وأقصى ما يصدر منها هو هزة رأس وتلويح باليد. حمامة عاشت لوحدها فترة طويلة بعد وفاة زوجها، وورثت منه أموالاً طائلة، لكنها بلا أولاد ولا أقارب ما خلا ابنة أخت تزورها كل شهر مرّة. فكرت أن حمامة تصلح طعماً شهياً للقشري، وأني سأستطيع في النهاية مساومته على قطعة السكر. ومن شدة حماسي للفكرة كنت في الصباح أنتظر في مواقف سوق الحرفيين حتى قبل أن يفتح السوق. فاجأني القشري بظهوره من خلف السوق يتبعه ابنه المعوق، لابد أنه جاء من البيت مشياً فمثله لا يحتمل دفع أجرة لأحد ليوصله للسوق. تركته حتى فتح

دكانه وأخرج أعشابه وجلس على كرسيّه ومن ثم توجهت له:

- عمّي مسعود. الحمد لله على السلامة، أشرق السوق بنورك وبركتك، لقد خفت عليك كثيراً. كيف هي حالك الآن؟

- أنا بخير يا ولدي، كيف هم: أبوك وأمك واخوتك؟

- الحمد لله يا عمّي. عمّي في المرّة الماضية اشتريت من عندك مليّناً للبطن لجارتنا حمامة، لعلك تعرفها، المشكلة أنها منذ ذلك اليوم حين سقيتها الدواء وحتى الآن تعاني من انطلاق البطن. اريد شيئاً ليمسك بطنها.

- حمامة المسكينة. نعم أعرفها وكنت أعرف زوجها يرحمه الله، من يعتني بها الآن يا ترى؟؟!!

- كما تعرف يا عمّي ليس لها أحد غير ابنة أختها المتزوجة في دبي، ولا تأتيها إلا مرة كل شهر. أنا أعتني بها أحياناً. المشكلة في أموالها الطائلة التي لا تجد من يحفظها. ورثت عن زوجها عمارتين ومزرعة وثلاثة بيوت غير الأموال السائلة في البنك.

- آهـ..... آها..... والآن من يحصل الإيجارات ويعتني بالمزرعة؟

- منذ وقت قريب فقط وكلتني في كثير من أمورها وهي تثق فيّ، لكنّي كما تعلم يا عمّي أنا مشغول. والمشكلة الأكبر الآن أنها تريد أن تحج وهي بحاجة لمحرم. عرضت عليها أن توكل أحداً ليحج عنها لكنها مصرّة أن تحج بنفسها. هل تصدق يا عمّي أنها طلبت منّي أن أعقد عليها لآخذها للحج. ليتها حجّت من قبل، الآن لم يتبقّ لها عن القبر إلا شبر أو شبران.

- أمممم ...... هل تعلم يا ولدي أن أم حمامة لها قرابة لأمي، كم نحن

مقصرون في صلة الرحم، يخشى الواحد منّا أن يموت وأبناؤه لا يعرفون أرحامهم. استغفر الله.....استغفر الله.

ونكس القشري رأسه لأسفل وهو يتمتم بالاستغفار والذكر، ثم رفع رأسه وقال:

- هل تعلم يا ولدي أيضاً أن هناك صلة قرابة بيني وبين أبيك؟!، أنا متأكد أن أباك نفسه لا يعرف ذلك. جدنا العاشر أو التاسع واحد. سبحان الله، الرحم يا ولدي شأنها عظيم، عسى الله أن يغفر لي ويرحمني. قل لي يا ولدي ، كم شبراً قلت بقي لحمامة عن القبر؟؟. أريد أن أبرها قبل أن تموت.

- شبراً أو شبران يا عمّي.

- وهي كما قلت لي تريد الذهاب للحج وليس لديها محرم، أليس كذلك؟!

- نعم يا عمّي. هو كذلك.

- الحمد لله الذي رزقني هذا الفضل. أنا مستعد يا ولدي أن أتزوجها وأذهب بها للحج، ويعلم الله أني لا أبغي من وراء ذلك إلا وجهه سبحانه.

قال جملته الأخيرة وسواد عينيه كل واحدة تشير لجهة غير أختها، علمت أنه وقع في الفخ. طلبت منه مهلة يومين لاستشير العروس، وقبل مغادرتي حملني بكل أنواع الأعشاب هديّة لها. كنت أتوقع ما أخبرتني به السكرة حين اتصلت بي في المساء، والآن أتعجب كيف انطلت خدعتي حتى على الشيطان. بدا صوتها مضطرباً ثم بكت. تقطع قلبي مع تنهيداتها حين قالت:

- لن تتوقع ما فعله الجنيّ اليوم بأبي المسكين، هل تصدق أنه يريده أن يتزوج. لقد كاد يخنقه اليوم عندما عاد من السوق، ليتك رأيته وهو يقلب جسده المسكين. لقد كبر الآن ولم يعد جسده يتحمل صرعاته، وهو كل يوم

طلباته في زيادة. هل تصدق أنه من الساعة السابعة إلى الآن لم يقم . تكاد كبدي تنفطر عليه.

- أنا فداء لكبدك يا حبيبتي، هوني عليك. حزنك حزني يا حبّة القلب. لكن طلب الجنيّ غريب هذه المرّة. زواج!!!!، والمشكلة من سيرضى أن يتزوج بأبيك ؟!؟!؟.

- ماذا تقول؟......ماله أبي؟.....ماذا يعيبه......كل شيء إلا القدح فيه.

- حبيبتي أنا قصدت أنه مسكون بالجن، والناس تخاف من الجن. أنا لم أقصد حوله المزدوج أو الخلل في فكّه الأسفل أو مشيته السلطعونية. هذه كلها أشياء عادية و.....

-وتقول إنك تحبني!!!!! وتقول أنك ترى الدنيا بي!!!!. كل هذا تراه في أبي وتقول إنك تحبني!!!.....تحبني وتقول أن أبي أحول وسلطعون وفكّه ملتفّ!!!!. الحمد لله أني لم أقرر أن أحبك بشكل قاطع، لقد بانت سريرتك.

-حبيبتي...... أنا..... أنا....

لكنها للأسف كانت قد أنهت المكالمة. حاولت الاتصال بعدها ما يقرب من الثلاثين مرة دون أن ترد عليّ. لساني المفتلت من عقاله تسبب لي بمصيبة، كيف أقدر على غضبها. كيف أهنأ بعيش وهي تصدني هكذا!!!!؟؟

وقاسيت الويل تلك الليلة من هجرها، وكنت إذا أخذت الغصّة بفؤادي قمت فألقيت برأسي على الجدار. العجيب في الأمر أني تمنيت البكاء تلك الليلة ولم أقدر عليه، وكأن ألمي ولومي لنفسي كانا في منطقة عميقة من روحي ، في باطن باطنها. حيث أشد أنواع الألم الذي ليس معه رحمة الدمعة.

آآآآآآهـ...... من حبك يا سكّرة. لابد أن كبدي ليلتها تفحمت ، كان ذلك واضحاً على وجهي في الصباح، بل لم تقو رجلاي على حملي لسيارتي لأذهب للعمل. فكرت كيف أرضيها. أأكتب لها رسالة أمتدح فيها عيون القشري وقوامه!!!. لا شك ستحسبني استهزئ به وبها. وماذا لو عرفت أني أنا وراء قصة زواج أبيها؟!؟!؟!.

كانت تلك ستكون الطامة الكبرى.كانت تراودني تلك الأفكار وأنا أرتجف، ثم لم أقو على الوقوف فجلست على عتبة الباب.

وكأني كنت في حلم...... سيارة أجرة توقفت أمام بيتنا تحمل القشري وابنه. فركت عيني لأتأكد، ولم يكن سواه. نزلا من السيارة، وجه القشري كان يتهلل بالبشر، وثوبه نظيف على غير العادة، ولم أصحُ من الدهشة حتى اقترب الإثنان مني:

- ولدي ناصر...... لم نهتد للبيت بسهولة..... السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله، عمّي مسعود!!!..... كيف حالك. مفاجأة كبيرة أن تأتي بنفسك. كنت أنوي زيارتك غداً حسب الموعد. تفضل تفضل للداخل.

- لا يا ولدي. أنت تعرف مرادي، صدقني أني لم أسترح منذ أن أخبرتني عن قريبتي حمامة، احساس الذنب يقطعني. أخبرني، هل أعطيتها الأعشاب التي أرسلتها معك؟

- نعم يا عمّي، وأخبرتها أنها هدية من عندك.

- وهل توقف بطنها أم أنه مازال يجري؟. إن كانت مازالت تعاني فسأقرأ شيئاً من القرآن عليها مادمت هنا.

- لم أرها اليوم يا عمّي، مازال الوقت مبكراً وأنا ذاهب للعمل الآن . سأراها في المساء وأخبرك في الغد.

- وهل أخبرتها عن استعدادي للزواج بها؟

- بالطبع أخبرتها عندما أعطيتها الهدية بالأمس. بيني وبينك يا عمّي لقد كلفتني بالسؤال عنك. بالطبع لا حاجة لأسأل ، فأنا أعرفك، لكني قلت لها أني سأسأل عنك وأتأكد من كل شيء.

- بارك الله فيك يا ولدي. سأدعو لك في كل صلاة، وإن وفقنا الله وذهبنا أنا وهي للحج سندعو لك من تحت أستار الكعبة.

- عمّي أريد منك خدمة بسيطة. علمت أن ابنتك هي طبيبة الأسنان في المركز الصحي، وقد ذهبت لأعالج أسناني لكنهم أعطوني موعداً بعد ثلاثة أشهر. هل يمكن أن توصي ابنتك علي ، ربما استطاعت أن تقدم الموعد.

- هـذا أمر بسـيط يا ولدي، اليـوم سـأكلمها لك . أنت أخوهـا ولابد أن تقدم لك الموعد.

تلك كانت هدية السماء. آهـ كم كنت سعيداً بزيارة القشري.ذهبت للعمل وأنا أسبح في بحر جمال السكرة، ويدي لا تفارق الهاتف أنتظر هزته باتصال أو رسالة. واتصلت قطعة السكر. كادت تخر دمعتي فرحاً وأنا أرى رقمها يضيء الشاشة.......

- نعم يا عمري......نعم يا سكّر حياتي.

- الآن سكّر حياتك، وكأنك نسيت ما فعلته بالأمس!!

- لو علمتِ بعذابي البارحة يا جنّة الروح!!!. تمنيت الموت ولا تغضبين

منّي لدقائق. سا محيني يا عمري.

- سامحتك. فقط لأن أبي امتدحك اليوم. وأرجو أن لا تعيدها أبداً. لكني متعجبة، متى التقيت أبي وكلمته بخصوص الموعد ؟ وما هو سر هذه المودة بينك وبينه؟ أبي لأول مرّة يكلمني من أجل أحد.

- منذ أن رأيت عمّي مسعود وقع حبّه في قلبي، مثل ما وقع حبك أنتِ. حبي لكِ حب روحي، أحبك وأحب من تحبين، بل وأحب أثرك على التراب.

- اسمع. هل فعلاً تريد أن تعالج أسنانك؟

- نعم نعم. وأنا مستعجل للغاية.....أرجوك.

-أستطيع تقديم الموعد متى ما تريد، لكني لن أعالجك.....أستحي، وقد أخطئ بسبب اضطرابي.

- لا. إما أنتِ أو لا أحد. سأصبر، من يصبر على وجع القلب، يهون عليه وجع الأسنان.

وعاد لي عقلي ، وسكن فؤادي بعد أن رضيت عني قطعة السكّر. وبت ليلي ذاك أكيد للقشري وأنصب له الشباك. كانت خطتي أن أخبره أن حمامة موافقة على الزواج، ثم آتي به إليها وأكلمها أمامه وهي بكل الأحوال لن تزيد على الإشارة برأسها. هذا من خجلها بالطبع أو بالأحرى من خرفها، وحين أتأكد أنه استوثق منّي وأطار الطمع عقله سأطلب منه قطعة السكر. لا شك أنه سيحسب الفوائد والخسائر، وفي حسابه أن ما سيجنيه من زواجه بحمامة أكثر بكثير مما سيفقده إذا أعطاني جواهر.

أعرف أني أطلت عليك أيها الديك العزيز، لكنها المرة الأولى التي أحكي

فيها قصّتي لأي أحد فسامحني.

- لاتقل ذلك يا أرمد. إني مستمتع بقصّتك أيما متعة.....أكمل أرجوك.

- سارت خطتي كما أردت، ووافق القشري على زواجي من السكّرة. كتبنا عقده على حمامة وعقدي على جواهر في يومٍ واحد، لكنه بعد أن اكتشف الخدعة أبطن لي الشرّ، وأنا لم أكن أبالي لفرحي أن جواهر صارت زوجتي شرعاً ولم يبق إلا حفل الزفاف. نعم كنت أتعجّب من سكوته عن الأمر لكني لم أتوقع ما كان يخطط له.

في أحد الأيام وفي غمرة استعداداتنا للزفاف حملت ثوباً هديّة للسكرة. كان القشري في البيت فجلست معه لتناول القهوة، أحسست أثناء ذلك بمغص شديد. أسرع القشري وأحضر لي شراباً قال إنه دواء ناجع للبطن، شربته وانتهت آلامي في الحال. لكن بعد ثوان سمعت في بطني نهيق حمار، وتطور الأمر معي أسرع منك بكثير حتى أني أصبحت أرى نفسي على هيئتي هذه بعد دقائق. لا أنسى كيف انهال عليّ بعد ذلك بالضرب في كل مكان من جسمي وهو يكيل لي الشتائم ويقول انه سيؤدبني. إحدى ضرباته أصابت عيني اليسرى. الغالية جواهر التي كانت قد أخذت مني الثوب ودخلت لتجربه جاءت فزعة من الضجة، وعندما رأتني صرخت بفزع وهي تتعجب من دخول حمار لداخل البيت. لم تكن المسكينة تدرك أن حبيبها الذي لم يبق على زواجها به إلا عدّة أيام قد انقلب في لحظة لحمار.

استبقاني القشري عنده بعد ذلك لعدة شهور قبل أن يموت، سامني فيها ألواناً من العذاب والمهانة لا تتخيلها. أكثر ما كان يعذبني هو حين أكون

مربوطاً أمام البيت وأرى جواهر حين تدخل وحين تخرج وهي حزينة باكية، المسكينة تحسب أني هجرتها وتركتها. خلال تلك الشهور عرفت كل شيء عن حقيقته. كان يركبني حين يذهب لاجتماع السحرة الشهري بين الجبال، ورأيت ما كان يفعل به ذلك الشيطان الأحمر مقابل ما يقدمه له من خدمات.

حميد كان يتردد على القشري ليتعلم منه السحر، وكان أقصى مراده أن يصل لاستصحاب شيطان معلمه، كان يظن أنه سيحقق له كل شيء خصوصاً شهوته للنساء ولم يكن يعلم أن ثمن ذلك هو أن يفعل به الشيطان ما يُفعل بالنساء. حين أدرك القشري أنه سيموت أوصى حميداً أن يكون مكانه في انتظار موعد ذلك الشيطان الخسيس، ومن يومها وهو عبد ذليل لشهواته وهي في الحقيقة شهوات شيطانه.

-كم أرثي لحالك يا أرمد. لكن كيف انتقلت لتكون عند والد حميد وهل تعرف ماذا حلّ بجواهر بعدك؟.

-آه حرّى أطلقها من القلب أيها الديك. جواهر مازالت تعيش حزنها إلى اليوم. بعد وفاة أبيها فكت رباطي وكانت تنهرني لأبتعد وأذهب لحال سبيلي. قلبي كان يعتصر ألماً، لم تطاوعني قوائمي أن أبتعد عن بابها رغم أنهم منعوا عني الطعام والماء ليومين. وعندما جاء حميد يطلب من جواهر أن تعطيه بعض كتب أبيها القديمة طلبت منه أن يأخذني بعيداً عن البيت لأني كما قالت أذكّرها بأبيها. أخذني حميد وسلّمني لأبيه، ومنذ ذلك الوقت وأنا أنتظر الفرصة لأنتقم من ذلك الشيطان الخسيس، لم يكن بيدي سوى الانتظار، وها هي قد أتت.

الفصل الخامس

- إذن يا أرمد كيف لم يعرف حميد بأنك آدمي مسحور وهو ساحر؟! وما هي قصّة أحجار المعرفة التي أكلتها؟!

- السحر الذي سقاني إياه القشري كان من القوة بحيث لم يبق من آدميتي ولا عقلي إلا أقل القليل ولذلك انطلى الأمر على ساحر مبتدئ. أما فيما يتعلق بأحجار المعرفة فقصتها مختلفة قليلاً عمّا أخبرك به حميد. من صحبتي للقشري عرفت أن ترياق السحر هي بلورات صغيرة يتقيؤها أولئك الذين يأتون لتعميدهم كسحرة في ليال معلومة من الشهر. في تلك الليالي يأتي هؤلاء بصحبة معلميهم ويأتي الشيطان على شكل جمل ضخم ثم يتحول لصورة رجل ضخم قبيح. يطلب منهم القيام بأعمال فاحشة للغاية وأكل أشياء قذرة ليختبر إصرارهم وجديّتهم. وحين يجتازون الاختبار يسجدون له فيدمغهم بين أكتافهم بضربة قوية يتقيؤون على إثرها تلك البلورات. فإذا خرجت البلورة من جوف أحدهم كانت دليلاً على إخلاصه لسيده الجديد وكفره بالله، وإن لم تخرج فلا يقبله وعليه معاودة الكرة في الشهر القادم. بقاء تلك البلورة في الجوف يعني بقاء بذرة للإيمان وهو ما يخشاه الشيطان.

وكما أخبرك حميد فقد هربت في أحد الأيام من أبيه للصحراء، وساقتني قدماي وبقية العقل القليلة التي كانت عندي لساحة السحرة حيث تعودت أن يأخذني القشري في ليالي التعميد. صرت أبحث عن تلك البلورات الصغيرة بين التراب وأبتلعها أينما وجدتها. وبعدها زال السحر عن جوهري بالكامل لكن سحر المظهر لايزول إلا بموت ذلك الشيطان اللعين.

-وهل تظن أنّك قادر على مجابهته يا أرمد وهو بتلك القوة؟

- ليس لي خيار آخر أيها الديك إن أردت أن أستعيد حياتي، وليس عندي شيء لأخسره وأنا على هذه الحال. ثم إني أحمل في دمي سلاحاً فتاكاً. تلك البلورات التي ابتلعتها ذائبة في دمي الآن وفي كل بدني، ولو استطعت أن أسقيه شيئاً منها لتفحّم ثم صار دخاناً وتخلصنا منه.....كم أنتظر ذلك اليوم أيها الديك العزيز. ليتك تحس كم أنا مشتاق للسكرة. أحس بدموعها الآن تقطر على كبدي.

- انظر يا أرمد. يبدو أن حميداً عاد من المدينة.

- بالمناسبة أيها الديك، لا تخبر حميداً بأي شيء مما يدور بيني وبينك، هذا إن أردت مصلحتك ومصلحته.

- لا تقلق يا أرمد.

جاء حميد بالنظارة الشمسية التي طلبها أرمد. لكنه حين قرّبها من رأس أرمد بدا عليه الإحباط وهو يقول:

- هناك مشكلتان في هذه النظارة، الأولى أن المسافة بين عينيك أكبر بكثير من المسافة بين العدستين، والثانية هي أن أذنيك تتحرك باستمرار. كيف سنثبت لك النظارة.

- لا يوجد إشكال ليس له حل، وإلا لم يشكل في الأساس. اكسر الجزء الواصل بين العدسنين ثم ألصقهما في طرفي غصن من السدرة بعد أن تقيسه على ما بين عيني، وابحث عن خيط تربط به علاقتي النظارة في أذني لكن اجعله رخواً ليسمح بحركتهما.

وهكذا أتم حميد إعداد النظارة لأرمد ولبسها، دار حول نفسه ليرى بها ما حوله. بدا شكله غريباً للغاية لكن سعادته كانت واضحة. أحسسنا أنها ساعة الانطلاق من وقفته المتحفزة. طلب منّا أن نركب على ظهره وانطلق بنا نحو المدينة.

وهكذا بدأنا المسير نحو المدينة، ساحر وديك يركبان على ظهر حمار بنظارة شمسية. لم نكن نعرف بعد ما هي نية أرمد وما هي خطته. كان يسرع بالمشي وظهره يهتز بشدّة مما جعل توازني صعباً. اكتشفت بعد ذلك أن أفضل مكان لوقوفي هو بداية الظهر عند منبت رقبته حيث الاهتزاز أقل. وهكذا كنت أنا أجلس في الأمام وحميد ورائي.

اختار أرمد طريقاً يصلنا لطرف المدينة البعيد عن بيت عائشة. كان وقت العصر عندما أشرفنا على البيوت. توقف أرمد بشكل مفاجئ حتى كدنا أنا وحميد أن نسقط من على ظهره. قال وهو ينظر لمجموعة من الصبية يلعبون كرة القدم بالقرب من أحد البيوت

- لا نعرف بعد ما ينتظرنا عند بيت عائشة، لكني أتوقع أنهم يستعدون الآن لكتب الكتاب بعد فشلهم بالأمس. حميد .... هل يمكنك أن ترسل أحد أتباعك الجنّ ليستطلع الأمر.

- هذا أمر هيّن، لو أعرف اسم البدين واسم امه لاتصلت بقرينه الجني الآن ولنقلت لكم ما يحدث بشكل مباشر.

- أخي اسمه سيف وامي اسمها مريم.

- مممم ..... لحظة..... لا أستطيع. لو اتصلت بقرينه سيخبره فهو ساحر.... أخوك ساحر أيها الديك.

- أعرف. عرفت هذا متأخراً للأسف.

- دعونا إذن نفترض أنهم هناك يستعدون لكتب الكتاب ولا نخاطر. اسمعوا... ابقيا على ظهري، سأخترق بكما شوارع المدينة راكضاً نحو بيت عائشة، سيتبعنا كثيرون فلا تخافا. هدفنا اليوم هو البدين. عليك أيها الديك أن تدلني عليه وسط الناس حين نصل لهناك، وحينها انزلا عن ظهري واهربا واتركا الباقي علي.

- ماذا تنوي أن تفعل بأخي يا أرمد؟

- اطمئن، لن يصيبه أي مكروه. فقط افعلا ذلك وانتظراني بين بساتين النخيل.

لم أكن لأتخيل ما حصل. انطلق أرمد مسرعاً بنا في اتجاه الصبية الذين كانوا يلعبون الكرة، وما إن أصبحنا في وسطهم حتى هالهم منظرنا وبدأوا يصيحون علينا ويركضون خلفنا. لست ألومهم، فحمار يلبس نظارة عجيبة ويحمل فوق ظهره رجلاً وديكاً لاشك أنه أمر يستحق الصياح.

لم يكن أرمد يلوي على شيء، بل كان يسرع مخترقاً الشوارع والحارات وهو يحثنا على الثبات فوق ظهره وعدم الخوف. من كل حارة ومن كل شارع كان يخرج خلفنا الكثيرون ممن لم يستطيعوا مقاومة فضولهم. أكثرهم الصبية والشباب وحتى أصحاب السيارات. عندما اقتربنا من بيت عائشة نظرت للوراء فإذا بذلك المشهد المخيف من المطاردين، بعضهم يصرخ وبعضهم يطلق منبهات السيارات.لاحت لنا الخيمة المنصوبة أمام بيتها والناس مجتمعون حولها، راعني صوت أرمد المبحوح من الركض وهو يقول:

- أين هو البدين.... هل هو بين الواقفين أمام الخيمة؟.

- نعم يا أرمد. إنه ذلك الذي يقف على باب الخيمة مباشرة ويضع يديه خلف ظهر ويعتمر عمامة زرقاء مزركشة بالأحمر.

- أيها الديك.... حميد.... سأبطئ قليلاً، عليكما بالقفز عن ظهري والهرب بسرعة.

قفزنا عن ظهر أرمد وهربنا باتجاه البساتين، لم يأبه لنا سوى بعض الصبية الذين عادوا بسرعة لمطاردة أرمد مع البقية. آخر شيء رأيته هو أن أرمد كان متجهاً لباب الخيمة مباشرة وبكامل سرعته، ثم ثارت بعد ذلك سحب كثيفة من الغبار لم نستطع أن نرى معها شيئاً.

دخلنا أحد البساتين واختفينا بين النخيل حتى تأكدنا أن لا أحد يتبعنا

ثم خرجنا للسكة ننتظر أرمد. وقفت فوق جدار استطلع، وماهي إلا دقائق قليلة حتى رأيت أرمد يدخل السكة متجهاً نحونا وهو يكاد يطير من سرعته. أذناه متجهتان للخلف ونظارته الشمسية تقفز وتستقر فوق عرف رقبته. قفزت من فوق الجدار للسكة لأعترض طريقه، لكنه لم يقف ولم يخفف حتى من سرعته. التف عني مواصلاً طريقه وهو يصيح بي لأختبئ. عرفت أنه مازال مطارداً. عدت للبستان لأجد حميداً يختبئ تحت شجرة عنب فاختبأت معه. سمعنا جلبة الراكضين خلف أرمد ومن ثم عودتهم عنه. تأكدنا أنه أفلت عنهم. عندما خرجنا للسكة نريد اللحاق بأرمد فاجأني حميد بقوله:

- لا أستطيع..... اذهب أنت أيها الديك للقاء أرمد. أحس أني سأموت لو لم أذهب لريم هذه الليلة. إني أشتاقها بشدة.

- حميد.... بعد كل هذا ستعود لها. ألم تذهب لأرمد ليخلصك منها والآن تقول أنك لاتستطيع فراقها!!!!.

وكأنّي كنت أكلم جذع نخلة، وكأنه تحول حينها لتمثال خال من الروح. استدار عني بعينين مذهولتين غائمتين وسار عائداً يحثّ الخطى نحو المدينة. تابعت طريقي أتبع آثار حوافر أرمد على الأرض وأنا أتوقع أن تنتهي بي نحو الصحراء. ماكدت أخرج من حدود البساتين إلا ورأيت أرمد يقف فوق تلّة قريبة ينظر باتجاهي. كان يبدو عليه الإنهاك ورأسه يتدلّى للأسفل. وصلته وأنا أيضاً تكاد أنفاسي تنقطع. بادرني بالقول:

- حميد ذهب لعشيقته ريم..... أليس كذلك؟

- نعم. كيف عرفت؟!.

- لقد شممت رائحة الشيطان القذرة حين مررت بكم هناك فعلمت أنّه بالجوار يبحث عن حميد ليركبه ويذهب به لها. إنه يمارس شهواته من خلال عبيده البشر.

- أخبرني يا أرمد ماذا فعلت هناك مع أخي؟.

- سأخبرك ونحن نمشي لمكاننا عند البئر هيّا...... إطمئن أيها الديك العزيز. أخوك لن يتزوج عائشة على الأقل في الوقت الحالي. والأمر الآخر السارّ أنه لم يعد قادراً على سحر أحد.

- كيف؟!؟!.... ماذا فعلت يا أرمد؟!..... أرجوك أخبرني بكل شيء.

- حسناً.....ما فعلته هو أني حينما تركتماني واصلت ركضي نحوه. ما كنت أريده هو أن أصطدم به ويسقط عند قدمي. ولكي أشفيه وأمنع ذلك الشيطان من أن يقترب منه كان علي أن أسقيه شيئاً من داخلي. لقد كان محظوظاً أنه سقط مستلقياً على قفاه وأن مثانتي كانت ممتلئة عن آخرها. لم أضع الوقت ووجهت بولي على وجهه أملاً أن يبتلع منه شيئاً وقد فعل. لن يجرؤ ذلك الشيطان على الاقتراب منه الآن.

- هل تقول أنّك سقيته..... بولاً!!!؟؟؟.

- نعم.... أنا آسف. لكنها كانت الوسيلة الوحيدة لأدخل تلك البلورات لجسمه. لا تقلق عليه، سيصاب بالحمى لأسبوع واحد فقط ثم سيتعافى، بولي ترياق أكيد أيها الديك. لكن السحر الذي عمله لك ولعائشة لن يزول إلا بزوال ذلك اللعين.

- إذن لماذا لم تفعل ذلك مع حميد المسكين؟!.... لماذا لم تسقه بعض بولك الشافي ويتخلّص من مصيبته؟!.

- بالرغم من تهكمك الواضح إلا أني متأكد لو كان شفاؤك في بولي لتوسلت لي لأعطيك قطرة أو قطرتين. على كل حال....سأجيبك أيها الذكي لماذا لا أشفي حميداً. حميد هو مفتاحنا للوصول لسيّده الأحمر، وإن استطعت أن أفعل ما خططت له فستشفى أنت وأنا وعائشة وحميد وكثيرون لا نعرفهم.

- لا تؤاخذني على كل صغيرة يا أرمد.... قل لي، كيف استطعت الهرب

بعد أن فعلت فعلتك؟

- الذين كانوا عند الخيمة مع أخيك أخافتهم الجموع التي كانت تركض ورائي فتركوا المكان بسرعة، وأنا اسرعت بالهرب قبل أن يصلوا......لماذا إذن كنت تتوقع أني اخترقت بكما عرض المدينة وجمعت كل أؤلئك خلفنا؟!.

- ما أصعب حالي!!!..... أنا على وشك أن أعبر عن إعجابي بحمار.

لم يعلّق أرمد على جملتي الأخيرة سوى بإسراعه في المشي. واصلنا السير في اتجاه مكاننا الذي انطلقنا منه في الصباح. كان العطش والتعب قد أخذا منّا كل مأخذ. شربنا من الإناء الذي بقرب البئر وعلى ما تبقى من أنوار الأفق حاولنا البحث عن شيء نأكله. كاد الظلام يبتلع كل شيء حين آوينا للسدرة استعداداً للنوم بعد يوم منهك. اتخذ أرمد مرقداً أسفل الجذع وصعدت أنا على أحد الأغصان القريبة. وأنا أحسّ بجفوني تهبط تحت ثقل النوم تذكّرت حُميداً، كنت أود أن أسأل أرمد كيف ستسير خطته بدون وجوده لكني لم أفتح عيني إلا فجر اليوم التالي. أحسست أن من واجبي الصعود لأعلى السدرة والصياح لكن أرمد أحس بي وقال:

- إلى أين أيها الديك؟...... إن كنت تنوي الصياح فلا تفعل.

- لماذا تمنعني؟!...... هذا عمل الديكة، لابد أن أصيح.

- ما أقل عقلك أيها ال......!!... إذا بقيت هكذا فلن تشفى من هذا السحر حتى لو قتلنا كل شياطين الأرض. لابد أولاً أن تنكر أنّك ديك لتشفى. هيا انزل هنا وساعدني في وضع نظارتي على عيني، لقد استقرت على رقبتي وأنا أركض بالأمس.

- كنت أتوقع أن تكون قلقاً بشأن حميد.

-لا تقلق بشأنه، سيكون شيطانه قد غادره الآن بعد أن قضى شهوته من تلك المرأة البارحة، وربما هو في الطريق الآن. أفضل شيء نفعله الآن هو

أن نبتعد عن البئر ونراقب من وراء الكثبان هناك، أخشى أن يأتي أصحاب الماشية يسقون ماشيتهم ويعتبرونك إفطاراً مجانياً لهم.

أعترف أنه أخافني بشدة حتى أني تخيلتهم يذبحونني. شربنا وذهبنا للرعي خلف الكثبان، كنت أصعد فوق التلال كل نصف ساعة أرقب مكان البئر باحثاً عن حميد دون جدوى. بعد الظهر بدأ أرمد يقلق للأمر. قضى طول العصر يراقب من أعلى الكثيب دون أن يتكلّم. التفت لي فجأة وكأنه تذكّر شيئاً وقال:

- عندما فارقك حميد هل لاحظت عليه شيئاً غريباً؟.

- نعم. كان ينظر لي وكأنه غير موجود وعيناه غائمتان.

- كان يجب أن أعرف هذا من البداية. هيا اركب على ظهري بسرعة ليس لدينا الكثير من الوقت، لابد أن نذهب لمكب النفايات، أرجو أن لاتكون هذه الليلة هي الأخيرة في عمر حميد.

- يا للهول..... لماذا تقول ذلك؟.... وماذا نفعل في مكب النفايات؟.

لم يجبني أرمد بشيء ويبدو أنه كان يوفر أنفاس الحديث ليسرع نحو هدفه. كان يبدو عليه القلق الشديد مما أصابني أنا أيضاً بالخوف. بعد وقت قصير دخلنا منطقة منخفضة بين الجبال ممتلئة بكل أنواع النفايات. اتجه أرمد صوب كومة كبيرة من المصابيح الملقاة في أحد الجوانب، توقف عندها وقال:

- أريدك أن تساعدني في خلع النظارة الشمسية ثم تضعها بالقرب من هذه المصابيح في الأسفل. بعد ذلك عد لظهري، لا أريدك أن تستنشق الزئبق السام وأنا أكسرها.

-ولماذا تفعل ذلك يا أرمد؟.

-أريد أن يلتصق غبار الزئبق من المصابيح على زجاج النظارة، سأشرح لك الأمر ونحن متجهان لبيت حميد، المهم الآن نفّذ وبسرعة.

عجيب ما أخبرني به أرمد بعد ذلك ونحن مسرعان لبيت حميد. عرفت سرّ رغبته في ارتداء نظارة شمسية وسرّ الزئبق. الزئبق بالذات يمتص الاشعاعات التي يصوّر بها الشيطان الخيالات للبشر لخداعهم، ووجوده على النظارة سيمنع الخيالات الخادعة عن عين أرمد. قلق أرمد على حميد كان اعتقاده أن الشيطان أحس أن حميداً لم يعد قادراً على ارتكاب المزيد من الفواحش، وأنه ينوي قتله أو التضحية به ليأكله السحرة الآخرون في ليلة التعميد...... وقد كانت هي هذه الليلة.

إسراع أرمد وإقدامه نحو المدينة أشعراني بشجاعة غريبة، وكأننا قائدان عظيمان وخلفنا جيش جرّار، فقط تمنّيت لو أني أنا الآخر أرتدي نظّارة مثله. كالبرق اخترقنا بساتين النخيل والحارة القديمة التي يقع بيت حميد في طرفها. توقف أرمد فجأة وهو ينظر لبوابة أحد البيوت. كانت بوابة حديدية واسعة مطلية بالأبيض. التقط بضعة أنفاس نارية من منخريه ثم قال:

- هذا بيت حميد. وإن صدق ظني فسيكون هو بالداخل قد أنهكه الشيطان البارحة عمداً ليكون خائر القوى ويحمله الليلة لاحتفال التعميد. إن لم نفعل شيئاً قد ينتهي به الأمر في بطون السحرة.

- إنّك تخيفني كثيراً يا أرمد...... ما هذا الكلام؟!.

- لا مكان للخوف أيها الديك إن أردنا لأرواحنا حياة تستحقها. هيّا طر فوق سور البيت وانظر للداخل وأخبرني ماذا ترى.

حاولت استرجاع شجاعتي التي كنت أحس بها ونحن قادمان. طرت لأعلى السور. كان الهدوء المريب يخيم على ساحة البيت والغرف أبوابها نصف مفتوحة وتؤرجحها الريح. كانت شمس العصر في وجهي فلم استطع التمعّن جيداً. مشيت على السور وعبرت من فوق البوابة للجانب الآخر. من خلال فتحة باب احدى الغرف لمحت رجلين ممددتين وكأنهما رجلي حميد.

بقيت لدقائق أراقب الرجلين لكنهما لم تتحركا. فردت جناحي وقفزت طائراً لظهر أرمد أخبره. دون أن يرد بأي شيء اتجه للبوابة يحاول دفعها برأسه لكنها كانت مقفلة من الداخل. استدار عنها وحسبته سيجرب طريقاً آخر، لكنّه أفزعني أيما فزع حين رفس البوابة برجليه الخلفيتين. ارتجّت البوابة بشدّة لكنها لم تفتح. أعاد أرمد الكرّة برفسة أقوى فانفتحت على مصراعيها. دخل أرمد بهدوء وأنا فوقه ووقف بساحة البيت يقلّب أذنيه في كل الاتجاهات. عندما اتجه للغرفة التي فيها الأرجل كدت أموت من الخوف وانكمشت على نفسي فوق ظهره أختبئ خلف رقبته المنتصبة. تقدّم بهدوء نحو الباب حتى ظهرت الرجلان وقد انحسر عنهما الثوب إلى الركبتين. تقدّمنا أكثر حتى أدخل أرمد رأسه من الباب لكنّه أخرجه بسرعة وهو يقول:

- أففف..... رائحة قذرة.

أكمل أرمد خطواته لداخل الغرفة حتى استطعت رؤية كل شيء. كان حميد ممدداً وبالكاد قادر على فتح عينيه والنظر لنا. كانت القذارة تغطي كل شيء ويبدو أنّه تغوّط وتبوّل في ثيابه منذ البارحة. كان حميد يحاول سحب الهواء لرئتيه بصعوبة شديدة وفي عينيه كلام يريد قوله لأرمد. بعد عدّة محاولات استطاع النطق بكلمات قليلة:

- الليلة..... الليلة سيأتيني يا أرمد.

ارتخى صدره بعد ذلك وكأنه قال كل شيء يريد قوله، وكأن أرمد أيضاً سمع كل ما يريد سماعه فأدار وجهه نحو الباب وخرجنا مسرعين دون أن يتفوّه لي بكلمة. خرجنا مسرعين عائدين للصحراء. في الطريق ورغم سرعة انطلاقنا توقّف أرمد فجأة واستدار حول شجيرة صغيرة كأنه يبحث عن شيء، خفض رأسه عند نبتة صحراوية حمراء:

- أتعرف ما هذا أيها الديك؟

- بالطبع أعرفه، إنه طرثوث أحمر، يشبه النقانق الطويلة المكسوة بالشعر. ماذا تريد منه إنه مرّ الطعم.

- إنه مقوٍ ذكري ممتاز.

- هل جننت يا أرمد؟! كيف تفكّر في هذا الأمر الآن؟!

اقتلع أرمد النبتة بفمه وأخذ يمضغها ونحن في طريقنا لمقرنا عند البئر. لم يكتفِ بواحدة بل فعل ذلك مع اثنتين غيرها وكنت أتعجب كيف احتمل مرارتها الشديدة. حين وصلنا للبئر كانت الشمس تكاد تلامس خط الأفق. بدا لي أن مرارة تلك النبتة قد أحرقت جوف أرمد فشرب حتى خفت أن لا يترك لي شيئاً من الماء في الإناء. بعد أن شربت وارتويت قال لي:

-أمامنا ليلة طويلة أيها الديك. إنها الليلة التي طالما انتظرتها.

- من المستحسن أن تخبرني بكل شيء قبل أن نذهب لأي مكان يا أرمد. لن أقبل أن تسوقني على ظهرك في كل مرّة كأنني قراد.

- هذه الليلة بالذات لم أكن لأذهب بك دون أن تكون على علم بما ينتظرنا. لأني أريدك أن تتحمل مسؤولية نفسك فقد لا أستطيع مساعدتك. لا أريد إخافتك، وإن التزمت بما سأقوله لك فستسير الأمور كما يجب. فقط أريدك أن تكون شجاعاً، ليس من أجلك فقط بل من أجلي ومن أجل عائشة وكل من يحبك ويحبني ومن أجل كثيرين لا نعرفهم.

- هل تعلم يا أرمد..... اليوم ونحن متجهون للمدينة كان قلبي ممتلئاً بالقوة والشجاعة، كنت أحس أننا نقود جيشاً لايهزم..... الآن أنا لست أقل شجاعة.

- ذلك الجيش الذي كنت تحسّ به أيها الديك هو معنا بالتأكيد. إنه الحق الذي لايهزم أبداً وإن طال ظهور الباطل. هيّا بنا الآن فالوقت ضيّق وسأخبرك بكل شيء.

سلك أرمد طريقاً في اتجاه الجبل، ومع آخر أنوار الأفق كنّا قد اعتلينا تلّة

مرتفعة وأشرفنا على ساحة واسعة يحيط بها الجبل كحدوة حصان. اقشعرّ ريشي وأنا أنظر لتلك الساحة، خالجني شعور مرعب غريب، ومازاد خوفي هو صمت أرمد وتأمله في الساحة. كنت أراقب حركة أذنيه المتوترة وسط صمت المكان ورهبته. قطع أرمد صمته بالقول:

- هذا هو «الملعب»، هكذا يسميه السحرة. هنا سيجتمعون هذه الليلة أيها الديك. هذه الساحة ستمتلئ بأقذر أهل الأرض وسترى منهم أقذر الأفعال. ستراهم عراة سكارى يفعلون كل ما يخطر لك وما لا يخطر ليرضوا شيطانهم الأحمر حين يأتيهم بالجائزة. وربما كانت جائزتهم الموعودة هذه الليلة حميداً المسكين ليأكلوه في آخر متعتهم ويختموا به ليلتهم.

- هل جننت يا أرمد؟! لماذا جئت بنا هنا؟

- لا أريدك أن تفكّر بشيء الآن سوى ذلك الجيش الذي لايهزم الذي كنت تحسّ به وأخبرتني عنه. تأكد أنّه معنا. لاتدع للخوف منك شيئاً. نحن أمام لحظة حاسمة. التراجع يعني الهزيمة، والإقدام يعني الانتصار.

- ألا تخشى أن يأكلونا يا أرمد؟.

- ليس علينا القلق بشأن النتائج أيها الديك فهي ليست بيدنا على كل حال. دورنا يبدأ بالنيّة الصالحة وينتهي بالعمل.

- أنا مستعدّ يا أرمد. ماذا تريدني أن أفعل؟.

- هل ترى تلك الشجرة الوحيدة في وسط الساحة؟ أريدك من الآن أن تذهب وتختبئ بين أغصانها العلوية. لا تنظر للأسفل أبداً مهما سمعت من أصوات إن كنت لا تريد أن يصيبك الهلع مما يحدث. ركّز نظرك للأعلى. في منتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل سترى جملاً يهبط من السماء بالقرب من الشجرة . قبل هبوطه بقليل أريدك أن تصيح بأقوى ما عندك. سأكون أنا هنا أنتظر صيحتك لأنطلق لهناك. تذكّر أن لدينا فرصة وحيدة

وهي أن أصل وذلك الجمل قد برك على الأرض للتو. لو وصلت قبل أن يبرك فسينتبه لي وسيرتفع، وإن وصلت متأخراً فسيكون قد استعاد هيئته، وفي كلا الحالتين سنكون أنا وأنت في خطر عظيم. سيكون المكان ممتلئاً بالسحرة وسيحاولون منعي بتصوير أشياء مخيفة لي، لكني لن أرى شيئاً منها وأنا أرتدي هذه النظارة. أنت لا تتوقف عن الصياح حتى أصل، فصوتك سيضمن لي أني في الاتجاه الصحيح.

-أرمد..... ذلك الجمل هو الشيطان الذي سيأتي حاملاً حميداً ليأكله السحرة هنا... أليس كذلك؟

- صدّقني أيها الديك أنّي لا أفكّر في أي شيء الآن سوى اللحظة التي سيبرك فيها ذلك الجمل، وكذلك أريدك أنت أن تفعل.

-لا أريد الابتعاد عمّا نحن بصدده.... لكنّي أرى تأثير تلك العشبة الذكرية قد بدأ يظهر عليك يا أرمد، ألن يشكّل لك هذا الأمر مشكلة ما؟!.

- دع هذا الأمر الذي هو شخصي للغاية وانطلق للشجرة بسرعة قبل أن يمتلئ هذا المكان بالسحرة.

برغم كل ما تظاهرت به من شجاعة أمام أرمد إلا أني في الحقيقة كنت أرتعد بداخلي. عندما انحدرت من التلّة للساحة ونظرت ورائي للأعلى حيث يقف أرمد ثم نظرت للمسافة بيني وبين الشجرة التي يفترض بي الاختباء بها كادت رجلاي أن تتيبسا من الخوف. وقفت لثوان قليلة ولولا صياح أرمد علي بالاسراع نحو الشجرة لما كنت تحركت. انطلقت بأقصى سرعة، مرّة أجري ومرّة أطير. في نصف المسافة نظرت للوراء فإذا بأرمد فوق التلّة لايبدو منه سوى خيال على صفحة الأفق.

عندما اقتربت لمسافة من الشجرة رأيت أن أغصانها عالية وجذعها طويل. كان لابد لي أن أزيد من سرعتي لأقصى حد ثم أحاول الطيران

قبلها بمسافة لأتمكن من الوصول للأغصان في الأعلى.صعدت لأعلى غصن وبحثت عن مكان كثيف الأوراق أختبئ فيه. شعرت ببعض الأمان ولكن لبعض الوقت فقط. أول ما أرعبني هو حين حاولت أن أحرك قدمي قليلاً على الغصن فلم أستطع. تخيلت أن الشيطان عرف مكاني وقيدني حتى يأتي ويأكلني. ثم تبينت بعد ذلك أنّي جلست على الصمغ الذي تفرزه الشجرة من أغصانها. بعد انقضاء حوالي الساعة حدث أمر رهيب كاد يخرج قلبي من فمي حينها. كان القمر قد نشر نوره على تلك الساحة، وفي وسط بحر الهدوء سمعت صوت ارتطام شيء ثقيل بالأرض خلفي مباشرة وأحسست أن كتلة هواء مرتّ من فوقي. شعرت بخوف شديد أفقدني القدرة حتى على الالتفات لبعض الوقت. عندما استدرت لأنظر كان هناك في الأسفل على مسافة من الشجرة امرأة كأنها قامت للتو من سقطتها تترنح. كانت تلبس ثوباً داكناً وبلا غطاء على رأسها. وقفت قليلاً ثم مضت مسرعة للبقعة المفتوحة من الساحة الواقعة بيني وبين مكان أرمد. مضى بعض الوقت قبل أن أسمع أصوات حديث متقطع، ثم أصواتاً جماعية تردد كلمات غريبة. أخافتني صرخات وبكاء هستيري دام فترة طويلة ثم توقف فجأة. بعد ذلك علت أصوات كثيرة تردد ذات الكلمات الغريبة. بلغ بي الخوف منتهاه حين تقدم صوب الشجرة خيال عار تماماً عرفت أنها امرأة من شعرها. سقطت تلك المرأة على وجهها قبل أن تصل للشجرة، ظهر حيوان أسود كالكلب وأخذ يلعقها، بعد قليل قامت تلك المرأة وكأنها منتشية بجنون وأخذت تركض عائدة من حيث أتت. تذكّرت نصيحة أرمد بأن لا أنظر لما يحدث في الأسفل، ولو بقيت أنظر لفقدت عقلي.

بقيت هادئاً أمسح بعيني السماء حتى ارتفع القمر وصار فوقي مباشرة. شعور غريب راودني حينها بأن الذي ننتظره قادم. أخذت أصوات السحرة

تعلو وهم يرددون تلك الكلمات الغريبة برتابة. خمنت أن الكلمات ربما تكون اسماً لذلك الشيطان.

أحسست باقتراب الأصوات تجاهي. توقعتها استعداداً لوصول الشخص الأهم في الاحتفال. لم يخب ظنّي، كان هناك شيء ما معلّق في الهواء على ارتفاع كبير يتجه نحونا بهدوء من جهة الشرق. اضطربت بشدة لأنه كان عليّ أن أقدر وقت وصوله للأرض والوقت الذي سيستغرقه أرمد للوصول هنا. مع اقتراب ذلك الشيء هالني منظره ولبسني الخوف الشديد. تبينته جملاً ضخماً بقوائم ضخمة تتدلى نصف مثنيّة. عندما اقترب أكثر استطعت ملاحظة البياض على ظهره فعرفت أنّه حميد المسكين. من شدّة الخوف أخذتني رجفة شديدة، حاولت أن أصيح فلم تطاوعني حنجرتي ولم أستطع حتى فتح منقاري. في لحظة دنا فيها بارتفاع نخلة عالية حدث شيء مريع. رأيت حميداً ينزلق من على ظهره ثم انفلت وبدأ يهوي للوراء. حينها فقط انطلق صوتي بصياح متواصل لم يوقفه شيء. خيل لي أن أعمدة نيران تخرج من الأرض في اتجاه السماء، ثم هيئ لي أن الشجرة التي أقف عليها تمشي بي، خيالات كثيرة رأيتها حقائق لكن لحسن الحظ كل ذلك لم يوقف صياحي المستمر. نظرت في اتجاه أرمد، استطعت رؤية لمعان نظارته في ضوء القمر، لاشك أنه كان منطلقاً كالرصاصة نحو هدفه.

حميد استطاع التعلّق بالذيل وترددت صرخاته المستغيثة في أجواء المكان جاوبتها صرخات ابتهاج من السحرة المنتظرين على الأرض. كنت أقلّب بصري بجنون بين الشيطان الهابط وأرمد المنطلق كالشهاب. أحسست أن الأمر استغرق دهراً حتى وطئت أقدام الشيطان الأرض وبرك وهو يصدر هديراً عميقاً مرعباً. حميد ترنّح وسقط وقبل أن يستقرّ في سقطته هجم عليه حيوانان كالضباع يجرانه.

رغم كل الصياح والهدير المتداخل كاد نهيق أرمد أن يشق السماء، نظرت فإذا هو ولم يتبقّ له سوى بضع خطوات ليصل، بدا لي حينها حجمه صغيراً بالنسبة للجمل الشيطان وتعجّبت ماذا يمكن أن يفعل به. الأعجب والذي لم يفتني ملاحظته هو عضو أرمد الذكري المنتفخ بفعل تلك العشبة التي أفرط في تناولها أول الليل.

كانت لحظة عصيبة عليّ تلك التي وضع أرمد قائمتيه الأماميتين على بعد خطوة واحدة من مؤخرة الجمل، كان رأس الجمل بدأ يرتد للوراء وكأنه استشعر شيئاً، لكن الوقت كان قد فات وأصبح أرمد قافزاً في الهواء ليستقرّ على مؤخرته ويتمسّك بأسنانه في ظهره. حاول أرمد رفع نفسه للأعلى بتحريك قدميه الخلفيتين في الهواء دون جدوى. إلتفّ رأس الجمل برقبته الطويلة للوراء وهو يصدر صوتاً مخيفاً ينمّ عن ألم شديد. استطاع أن يصل لإحدى قدمي أرمد فعضّها ورفعه لأعلى. حينها حصل ما يبدو أنّ أرمد خطط له منذ البداية. لقد أصبح وضع أرمد من مؤخرة الجمل بوضع التلقيح تماماً . وكأن قوة ألف حمار اجتمعت فيه حينها فدفع نفسه وغمد سلاحه كما أراد. أفلت الشيطان أرمد على وضعيته تلك وعاد رأسه للأمام وسكن للحظة كأنّه يحاول ابتلاع شيء. ثم أخذ يهزّ رأسه بعنف شديد حتى حسبت رأسه سينقطع. رفع بعدها رأسه للأعلى بكامل امتداد رقبته وأصدر صوتاً عظيماً غليظاً وكأن أمعاءه خرجت من فمه.

تعالت مع صرخته تلك صرخات كثيرة من حولنا. أطلق أرمد قبضة أسنانه من ظهر الجمل وانزلق للوراء وسقط على ظهره وقوائمه للأعلى. وهو يحاول الوقوف صاح بي أن أهرب وأنجو بحياتي. لم أعرف لأين أهرب حتى رأيته قام يعدو في الاتجاه الذي جئنا منه. هبطت من الشجرة طائراً في إثر أرمد. كان الهدير المخيف للجمل مازال يملأ الفضاء. لم نشعر بأننا ابتعدنا حتى

وصلنا لأعلى التلّة الفاصلة حيث وقفنا أول وصولنا للساحة. استدار أرمد ووقف ينظر. طلب منّي إزاحة النظارة الشمسية عن عينيه قائلاً:

- بصـرك أحـدّ من بصـري بلا شــك أيها الديك، هل ما أراه هناك سحابة سوداء؟!.

- نعم يا أرمد.... يا للعجب!!!...إنها سحابة سوداء معتمة ترتفع من الأرض. ماذا فعلت به يا أرمد؟!.

- صدّقني أيها الديك، لم تكن أكثر من حقنة. لقد جمعت له ما كان يخرجه من نفوس ضحاياه وحقنته به مرّة واحدة.

- لهذا إذاً كنت تتناول تلك النبتة المنشطة، لم أكن لأتخيّل أنّ خطّتك كانت على النحو الذي رأيت. أنا متأكد أنّ الحقنة وصلت لمنطقة عميقة جداً. والآن يا أرمد..... ماذا سيحدث؟

أذكر أنّي نطقت بتلك الجملة وأحسست بدوار ورغبة شديدة للتقيؤ. ثم أفقت في اليوم التالي على حرارة الشمس تلفح وجهي. أفقت وأنا مستلقياً على ظهري وأول شيء خطف بصري هو أصابع قدمي المنتصبتين. قفزت من الفرحة وأخذت أصرخ. تذكّرت أرمد فرفعت صوتي أنادي عليه فإذا به يستجيب لي من وراء أحد الكثبان. ركضت في اتجاهه وكلّي شوق لأرى كيف يبدو في شكله الإنساني. عندما أقبلت عليه كان يجلس القرفصاء متفكّراً ويلفّ على وسطه كيساً من البلاستيك. ضحكت منه وأنا أقول:

- دائماً تفاجئني يا أرمد. أنت وسيم للغاية لكن ذوقك في الملابس أيضاً سيء للغاية. لماذا تلبس هذه الأكياس.

- من الآن يمكنك مناداتي باسمي "ناصر". أما عن الملابس فأرجو أن تجد لك شيئاً تستر به عورتك.

حينها فقط فطنت أني كنت بلا شيء يغطي عورتي. صدقوا أني كنت

سعيداً وأنا أبحث عن أكياس البلاستيك والخرق لألفها حول جسدي، فخروجي من جسم الديك يهون دونه ما عداه.

لن أطيل عليكم، عادت حياتي كما كانت، وعادت لي جوهرة أحلامي عائشة. وعاد ناصر لحياته هانئاً بسكّرته. أخي البدين أصيب بعاهة عقلية، وأما حميد المسكين فقد قيل عنه أنه كان مختلاً، ضلّ في الصحراء ومات ونهشت جثّته الكلاب.

إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمد بن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبوزيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة فن المسبع	شعر	خميس بن جمعه المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة التغرود	شعر	خميس بن جمعه المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	ترجمة/ أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان

اصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

1	لعيني ديالي	نصوص	محمد بن حبيب الرحبي
2	الخيمة ومفاتيح الحظ	مسرح	عزة القصابية
3	لآلىء عربية	مقالات	ناصر بن حمود الحسني
4	بين قدرين	رواية	رأفت ساره
5	تحت المطر	مقالات	خالد بن علي المعمري
6	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد القطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

طبع بمطابع مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان

الديك

ديك حي يعيش في بطني..... الأمر أصعب مما تتصورون. أن يعيش ديك في بطن أحدكم هذا أمر يجعل كل شيء مختلف. كانت تراودني أفكار مرعبة وأصبت بإحباط شديد. تبخرت كل أحلامي في مخيلتي بسبب هذا الديك. كيف سأدرس و أتوظف وأتزوج عائشة. تخيلت نفسي وقد تزوجت عائشة ودخلت بها فإذا بهذا اللعين يصيح في بطني.....ماذا سأقول لها؟!؟!؟!؟.

قال أخي: ما رأيك لو وضعت له بعض الحب على الأرض ثم تفتح فمك. قد يخرج ليلتقط الحب ثم تغلق فمك بسرعة فلا يستطيع العودة. وإذا لم تنجح هذه الفكرة عندي فكرة أخرى ستنجح بالتأكيد. جيراننا لديهم قفص دجاج خلف المنزل، إذهب وافتح فمك وسيخرج بمجرد سماعه لأصوات الدجاج.

